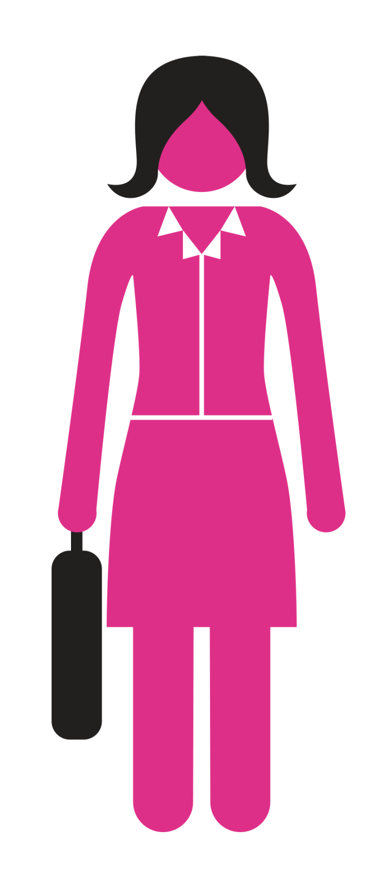
المرأة والعمل



نبوية موسى

المرأة والعمل

المرأة والعمل

تأليف
نبوية موسى



المرأة والعمل

نبوية موسى

رقم إيداع ٨٨٧٢ / ٢٠١٤
تدمك: ١ ٨٣٠ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إسلام الشيمي.

المحتويات

مقدمة

قد بحثت في كتابي هذا عن تاريخ المرأة في بعض الأمم، وعن مواهبها الفطرية، وما ينجع في تعليمها — خصوصًا ما يتعلق بالفتاة المصرية — ثم أظهرت ما يعوز مصر من ذلك التعليم، وطرقت بعض مواضيع أخرى لها مساس بعلاقة المرأة بالرجل، مستشهدة في ذلك كلِّه على احتياج المرأة إلى العمل لكسب قوتها، فإننا لا نضمن لكل امرأة وجود من يعولها من الرجال، كما يقول بعض الناس: إنَّ المرأة المسلمة يعولها والدها، فزوجها، فولدها.

فليت شعري، هل أخذنا على الموت عهدًا بذلك، فأغلظ لنا الميثاق أنه لا يختطف روح مسلم إلَّا إذا تزوجت ابنته؟ ثم أمنَّا الدهر بعد ذلك، فعلمنا أنه لا يغدر بفتاة، فتطلق بعد الزواج وتصبح لا عائل لها؟ أو يموت الزوج وأولادها أطفال صغار يحتاجون إلى من يعولهم؟ ومن ينظر إلى الأمور بعين الحقيقة والرؤية، يعلم أنَّ الدنيا على خلاف ما زعم هؤلاء القائلون سواء في ذلك المسلم أو غيره؛ لهذا كان في انحطاط النساء انحطاط للأمم، ولما كنت — كغيري من أبناء الأمة المصرية — يهمني ما يعود عليها بالخير، فقد بحثت في جميع المواضيع التي تتعلَّق بنا نحن المصريات، إلَّا أني لم أتصدَّ إلى البحث فيما يسمونه الآن بـ «السفور والحجاب»؛ لأني أعتقد أنَّ هذه التسمية اصطلاحية، فكلاهما اسم نكاد نجهل مُسمَّاه.

فلست أستطيع أنْ أسمي الفلاحة سافرة؛ لأنها لا تلبس ذلك النقاب الشفاف المعروف عندنا نحن المدنيَّات، مع أنها تسير في طريقها محتشمة، لا يكاد يرى الإنسان منها إلَّا جزءًا بسيطًا من وجهها، فيراها الرجال دون أنْ يعيرها أحد منهم نظرة، أو التفاتة، أو يتبعها خطوة؛ ليتمتع بجمالها الطبيعي، كما أني لا أسمي بعض المدنيَّات مُحتجبات مع أنهن يكثرن الخروج متبرِّجات، وعليهن من الزينة والحلي ما يلفت أنظار المارة، وعلى وجوهن

نقاب لا يستر إلَّا الحياء، وليتهن مع ذلك لم يظهرن صدورهن وسواعدهن وسيقانهن، هذا فضلًا عن تلك المشية المتصنِّعة التي تبرأ منها الآداب براءة تامَّة، لهذا لم أرَ من حاجة إلى التعرض للسفور أو الحجاب، ما دمت لا أفهم معناهما إلى الآن …

أمَّا الحجاب الذي أفهمه أنا، فهو أنْ تبتعد النساء عن الرجال، ما دام ليس هناك داعٍ قهري إلى الاختلاط بهم أو الخروج أمامهم، فإذا اضطُرت النساء إلى الخروج، خرجن وفي زيِّهن وملبسهن ومشيتهن ما يكفي لهدم مطامع الرجال فيهن، وإبعادهم عنهن، وهذا ما أسميه بالحجاب، ولا يكون ذلك في النساء إلَّا بتعليمهن التعليم الراقي، الذي يَشعُرن معه بمكانتهن الحقيقية؛ فيترفعن عن تلك السفاسف الصغيرة، ويلتفتن إلى العمل النافع، فيشغلهن هذا عن الفتن في الزي، ونكون قد أتينا البيوت من أبوابها، قلت هذا منذ سنة ١٩١٠م؛ أي وأنا لا أزال في عهد الشباب الناضج، وكان الحجاب الذي ذكرته بالطبع موجودًا، وها هو الآن قد ذهب كما توقعت، ولكن لم يحل محله السفور الذي كنت أريده، بل حل محله سفور ماجن، ينحط بالأخلاق بدلًا من أنْ يرقى بها، وما دمنا قد انتقلنا من الحجاب إلى السفور، فقد يكون في المستقبل ما يبعث في عظيم الأمل بالسفور الكامل المحتشم الذي دعوت إليه.

وليس أضرُّ على الأخلاق من الجهل والفراغ؛ ولهذا رأيت أنَّ أفضل خدمة تُقدم لهذا الوطن المفدَّى، هي لفت النساء إلى العلم والعمل، ودفعني هذا الاعتقاد إلى إبراز كتابي هذا، راجيةً أنْ يكون له — على ضعفه — ولو بعض الأثر فيما أروم، ولست أصل إلى الغاية المطلوبة منه، إلَّا إذا أقبل أدباء المصريين وعقلاؤهم على ترويجه، فعسى أنْ ألقى منهم ما أرجوه من ذلك الإقبال، وفَّقنا الله جميعًا إلى ما فيه نفع البلاد.

نبوية موسى

المرأة في جميع الأمم

واتِّباع الأُمَّة لها في الرقي والانحطاط

إني أتكلم الآن عن تاريخ المرأة في العصور الخالية إجماليًّا، ثم أشرح أحوالها في بعض الأمم؛ لنرى كيف كان الاهتمام بشأن المرأة دخل عظيم في تقدم الأُمَّة؛ ولنرى أننا — نحن المصريات — مقصرات فيما يجب علينا في ترقية شأننا، ولو أنَّ هذه الترقية قاصرة علينا لا تفيد غيرنا، لتقاعدنا عنها حتى لا ينسب إلينا حب الذات، ولكنها ترقية تعم الأمة بأسرها؛ لدخول نصفها في الحياة الحقيقية بعد أنْ كان كالعضو الأشل في جسمها قد يعوق غيره عن الإصلاح، فتقاعُدنا عنها جهل بحقوقنا، وجهل بحقوق أبنائنا، وجهل بما لوطننا علينا من الواجبات، ولقد قال السير هنري مين Henri Maine الإنجليزي الشهير: «إنَّ الفرق العظيم بين مدنية الرومان ومدنية الهنود الفاسدة؛ يرجع إلى أنَّ الرومانيين كانوا يهتمون بشأن المرأة، ويسعون في تحريرها، أمَّا الهنود فكانوا يبالغون في استعبادها والتضييق عليها.» ولا عار علينا لما نحن فيه الآن من الجهل والخمول؛ فقد كان كل النساء كذلك، وإنما العار أنْ يعمل غيرنا من النساء ونكسل، فيتقدمن ونتأخر، حتى لقد اتسعت المسافة بيننا وبينهن.

ولقد كان نساء أوروبا منذ قرنين تقريبًا أسوأ منَّا حالًا، وما زلن يعملن حتى أصبحن على ما نعلمه من حالهن الآن، أمَّا نحن فقد تأخرنا عن أسلافنا، إلَّا أننا — ولله الحمد — قد أفقنا من ذلك السبات الطويل، فأصبحنا أحسن من أمهاتنا حالًا، وهذا ما يجعلني آمل فيما أرجوه من الإصلاح لنا في المستقبل.

كانت المرأة في الأزمان الغابرة مُهملة خاملة، لا شأن لها، كانت تحت سلطة الرجل يتحكم فيها ما شاء، وكان يعدُّها من المتاع، فيلهو بها، ويغار عليها أنْ يراها غيره أو يلمسها الهواء، فلم يكن يعتبرها شخصًا كاملًا، ولو اعتبرها كذلك لوثق بها ثقة الصديق بصديقه، وكان لها من نفسها رقيب، ولكنه كان يطعن في ذمتها، ويغار عليها غيرة عمياء، كما يغار الصبي على لعبته من أنْ يمسها غيره؛ ولهذا اجتهد الرجل في إخفائها عن العيون، فانكمشت في زوايا البيت، ولم تتعدَّاه أعمالها، حتى إذا خرجت منه تدثَّت فيما يسترها عن الأنظار، فهذا الحجاب أو الستر لم يكن قاصرًا علينا نحن المسلمات، بل كان مألوفًا في كثير من الممالك الأوروبية وغيرها، إلَّا أنه لم يكن على هذا الشكل المعروف عندنا الآن.

كان اهتمام الرجل بإخفاء زي المرأة من ضمن الأسباب التي جعلتها تبالغ في تحسين شكله، وتنافس في ذلك غيرها؛ لعلمها أنه مطمع أنظار الرجال، ولقد علمت من مثل هذه المعاملة أنَّ الرجل يُقدِّر شكلها فوق كل شيء؛ ولذا اجتهدت في إخفائه عن العيون، ومالت إلى الزينة، وتغالت في تحسين هذا الزي، الذي هو أنفس ما يحرص عليه الرجل فيها؛ سعيًا منها في إرضائه، وقد شغلتها هذه الزينة عن النجاح في أمور كثيرة، حتى أدَّى ذلك أحيانًا إلى أنْ تشوه المرأة خلقتها الطبيعية؛ سعيًا وراء ما تظنه يُجمِّلها، ويختلف هذا النظر باختلاف البلاد.

فالمرأة الصينية تهتم بالزينة أكثر من غيرها، حتى إنها تغير شكل أسنانها الطبيعي، كما تتلف أقدامها بلبس حذاء صغير من الخشب منذ طفولتها؛ ليضغط على أقدامها فلا تنمو؛ ظنًّا منها أنَّ المرأة لا تُعد جميلة لطيفة إلَّا إذا كانت صغيرة الأقدام، ولهذا نرى أنَّ الصينية قد لا تستطيع المشي لصغر أقدامها، فهي عاجزة عن قضاء حاجتها وإصلاح شأنها.

وهذا على ظني من ضمن الأسباب التي ساعدت على خمول الصين؛ لأنها — مع هذا الملك الواسع — بعيدة عن العالم الحديث، لا يكاد يتعدَّى ذكرها حدود بلادها، مع أنَّ أختها اليابان قد سادت جميع الأمم الشرقية، وطبق ذكرها الآفاق، فقهرت روسيا على فخامتها، وأخذت منها بور آرثر، كما أخذت من الصين منشوريا، وهي أخت الصين في الأصل والصناعة، وإنما أهملت الصين شأن النساء، ولم تعدهن إلَّا للزينة، أما اليابان فهي على ضيق أملاكها أمة نشيطة، قد اقتدت بأوروبا في تعليم النساء وإعدادهن للأعمال، حتى لقد خفَّفت المرأة اليابانية من زينتها، وزاحمت الرجال في دور العلم ومعامل الصناعة.

وبعض الزنجيات في جنوب أفريقيا وأواسطها يخرقن أصداغهن، متحمِّلات ما يؤدي إليه ذلك من ألم؛ ليضعن في هذه الثقوب ريشًا للزينة، كما يضعن هذا الريش على رءوسهن في خلال الشعر، وبعضهن أيضًا يثقبن الحاجز الأنفي الذي يفصل فتحتي الأنف؛ ليضعن فيه قطعة من المعدن في سُمك القلم، وتبلغ في الطول من خمسة سنتيمترات إلى عشرة، ولا يخفَى ما في هذا من المضايقة للمرأة، وربما أثَّر في حاسة الشم، فضلًا عن تشويهه للخلقة الطبيعية.

وكلٌّ منَّا تعلم ما كانت ولا تزال تتحمَّله العربيات والقرويات في مصر من الآلام الشديدة في عملية الوشم، إذ يُدخلن في مسام الجلد مادة خضراء، بواسطة عدة إبر منضم بعضها إلى بعض؛ ليصبغن الجلد باللون الأخضر، كما تفعل هذا الحبشيات بلثة أسنانهن، تتحمل النساء كل هذه الآلام مع الصبر، ولا يستفدن منها إلَّا تشويه منظر الجلد، كل هذا تضحية من المرأة في سبيل الزينة لتفرغها، فهي مسكينة عاجزة، أقول عاجزة لا بالفطرة، ولكن العادة أضعفتها، وقد سعى الرجال في إضعافها طمعًا في امتلاكها، وكانوا في هذا يسعون إلى تأخرهم من حيث لا يشعرون.

وكان نساء روسيا يلبسن الحجاب بالمعنى المعروف عندنا اليوم، فلما تولَّى الملك الإمبراطور بطرس الأكبر أمر بترك هذه العادة، فرفعت النساء الحجاب، وترك الرجال الملابس الشرقية، ومن ثَمَّ أخذت روسيا في النمو والاتساع إلى أنْ وصلت إلى ما هي عليه الآن، وقد تولى المُلك بعد بطرس الأكبر عدد من النساء، وفي أيامهن انضم إلى روسيا كثير من الولايات الصغيرة.

أما الهنود فكانوا يبالغون في استرقاق المرأة إلى حدٍّ بعيد، حتى كان من جملة عاداتهم الوحشية أنَّ المرأة إذا مات زوجها؛ أحرقت نفسها يوم وفاته، وهذا مما يدل على أنهم كانوا يعتقدون أنَّ المرأة إنما خُلقت ليتمتع بها الرجل، حتى إذا مات وجب عليها أنْ تفارق الحياة على أثره، وهو غاية حب الذات والاستبداد، وكانت نتيجة هذا انحطاط أمم الهنود، واستعباد الأمم الغربية لهم.

فلم ينتج تغير الحال الاجتماعية في روسيا فجأة ما أنتجه محافظة الهنود على استعباد النساء من سوء العاقبة، وعلى حقائق التاريخ يمكن أنْ تقاس نتائج المستقبل، لا على مُجرَّد الوهم والخيال.

كانت حالة المرأة في جميع الأمم السالفة على ما ذكرت من الضعف، إلَّا أنَّ الضغط عليها وهضم حقوقها، كان يختلف في بعض الجهات عن البعض الآخر، فكانت حالتها

في أوروبا أحط منها في جزيرة العرب، وذلك قبل ظهور الإسلام بزمن يسير، واستمرَّت الحال كذلك إلى ما بعد ظهوره، فكانت المرأة الأوروبية تحت سلطة الرجل، لا تتصرف في شيء مدة حياته، حتى أموالها الخصوصية، ولا يُصرِّح لها القانون بالوصاية على أولادها بعد موته، فكانت خاضعة له بحكم القانون.

كان هذا شأن أوروبا عندما نزل القرآن الشريف، وأباح للنساء التصرف في أموالهن، والوصاية على أولادهن، والتمتع بجميع الحقوق المدينة، فكان المسلمات أرقى شأنًا من النساء الأخريات، وما زلن يتأخَّرن ويتقدم غيرهن، حتى أصبحن على ما نراه الآن، وما ذاك إلَّا لانقطاعهن للجهل والفراغ.

التفتت بعد ذلك أوروبا إلى تحرير المرأة وتوجيهها إلى الأعمال، وتعليمها التعليم الصحيح، الذي تشعر معه أنها إنسان يؤدي أعمالًا نافعة في هذه الحياة، لا تمثال يوضع للزينة واللهو، فسبقت غيرها بخطًى واسعة، وإني أضرب لحالة المرأة في الشرق، وحالها في الغرب مثلًا بتاريخ المرأة العربية والإنجليزية.

لم تكن المرأة العربية في الزمن السابق مُنحطَّة عن أختها الغربية، بل كان يهتم بشأنها رجال العرب اهتمامًا عظيمًا، فلم يقل شاعرهم قصيدة إلَّا صدَّرها باسم زوجته أو قريبته، ولم يحضر فارسهم حربًا إلَّا ونساؤه وراء ظهره ينصحن له بالإقدام، فيقدم طاعة لأمرهن، وإظهارًا لشجاعته أمامهن، حتى إذا حارب ولم ينظرنه، جاء يخبرهن بفوزه كما قال عنتر العبسي:

هَلَّا سَأَلْتِ الخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ كُنْتِ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي
يُخْبِرُكِ مَنْ شَهِدَ الوَقِيعَةَ أَنَّنِي أَغْشَى الوَغَى وأَعْفُ عَنِ المَغْنَمِ

وقال بشر:

أَفَاطِمُ لَوْ شَهِدتِّ بِبَطْنِ خبتٍ وَقَدْ لَاقَى الهَزِيرُ أَخَاكِ بِشْرَ

وقال عمرو بن كلثوم:

عَلَى آثَارِنَا بِيضٌ حِسَانٌ تُحَاذِرُ أَنْ تَمرقَ أَوْ تَهُونَا
يُقِدْنَ جيَادَنَا ويَقُلْنَ لَسْتُمْ بُعُولَتَنَا إذَا لَمْ تَمْنَعُونَا

إِذَا لَمْ نَحْمِهِنَّ فَلَا بَقِينَا بِخَيْرٍ بَعْدَهُنَّ وَلَا حَيِينَا

فأين هذا العصر من عصرنا وعصر أمهاتنا؟ إذ يعد الرجل اسم ابنته أو زوجته عارًا، فيتحاشى ذكره!

فكان نساء العرب بمثابة قوَّاد، يشجعن الجيوش على الإقدام أثناء الحرب، ويشتغلن بمعالجة الجرحى، على أنَّ أوروبا لم تصل إلى هذا إلَّا بعد زمن طويل، وقد اشتغلت نساء العرب بكل ما اشتغل به رجالهن، فكان منهن الشاعرات والمحاربات والتاجرات، كالسيدة خديجة — رضي الله عنها — وغيرها، حتى كان منهن المَلِكات أيضًا، ومن أشهرهن الزَّباء، التي قتلت جذيمة الأبرص ملك الحيرة؛ أخذًا بثأر أبيها.

وبالجملة، فالمرأة العربية كانت في مقدمة نساء عصرها، ولعلَّ هذا كان من بين الأسباب في ارتقاء الأمة العربية واجتهادها، حتى جاء الإسلام زادها رُقيًّا على رُقيِّها، وسوَّى بينها وبين الرجل في كثير من الحقوق والواجبات، وقد كان النبي ﷺ يقرِّب الخنساء في مجلسه، ويحب سماع شعرها من فيها، ويعدها من بين صحابته.

وكان النساء في الحرب التي قامت بين علي ومعاوية يُحرِّضن الرِّجال، ويتطوَّعن لملاحظة الجرحى، مما يدل على أنَّ الإسلام لم يحرِّم عليهن العمل، ولا التدخل حتى في الأمور السياسية، فكانت الأمَّة بتمامها تميل إلى العمل والسعي وراء ما يرفع شأنها، حتى إذا استولت العرب على الأندلس، كانوا مثال النشاط والاجتهاد للممالك الأوروبية، وقامت نساؤهم بكثير من الأعمال، حتى أجرَين العمليات الجراحية العظيمة، وهو ما تسعى أوروبا في الحصول عليه الآن.

وما زالت المرأة العربية تشعر بالحياة الحقيقية إلى أنْ قضى الله على الأمم العربية بالانحطاط، فخملت العقول، واستبد بهم الأعداء، فاستبدوا هم بنسائهم، وأخطئوا في فهم القرآن، فأولوه بما شاءوا، وصادف هذا التأويل هوًى في النفوس، فاتبعوه رغم بعده عن الصواب، فلم يأت في القرآن الشريف نص بحرمان المرأة من العلم والعمل، وخمولها هذا الخمول، ولا قضت العادات الشرقية — كما يزعمون — عليها بالسجن في جوف المنازل، ولولا تلك الأوهام، لكانت الشرقيات أولى بالسبق إلى معالي الأمور من غيرهن لما لهن من التقدم في ذلك.

ولست أضرب صفحًا عن حالة المرأة المصرية قبل دخول العرب في مصر، بل أقول إجماليًّا إنها لم تكن مُنحطَّة عن غيرها من نساء ذلك الزمن، ويدل على ذلك انتظامها في سلك المُلك، فقد كان من ملوك مصر القدماء جوريق ولازلقا من ملوك العمالقة، ودلوكة

الملقبة بالعجوز من أشهر ملوك القبط، وكليوباترا من ملوك اليونان، فالمرأة المصرية الآن أحطُّ من أسلافها، سواء في ذلك انتسبت إلى العرب أو إلى فراعنة مصر، في حين أنَّ المرأة الغربية تتقدم مع الزمن، فهي على العموم أرقى من أمهاتها، وتلك سُنة الدهر في الارتقاء الطبيعي، لم تنعكس هذه السُّنَّة إلَّا بالنسبة لنا نحن المصريات — والعربيات بالطبع — وهذا تاريخ المرأة الإنجليزية يشهد لي بما أقول.

كانت المرأة الإنجليزية — كغيرها من نساء أوروبا — خاضعة لسلطة الرَّجل، محرومة من كثير من حقوقها المدنية، لا تتناول من الأعمال إلَّا أعمالًا محصورة، كالتعليم الابتدائي، والتمريض، والخياطة، والولادة، فالتفَتَ كثير من فضلاء الرجال إلى تحريرها، وكان ممن تكلَّم في هذا الشأن السير هنري مين، وقد دافع عن المرأة دفاعًا حسنًا، كما دافع عنها في مصر المرحوم قاسم بك أمين، وهو أوَّل مصري فكر في العواقب.

ومن ثَمَّ التفتت نساء إنجلترا إلى العناية بشأنهن، فقامت مسز براوني ونشرت مقالة سمتها «أرورالين» انتصرت فيها للنساء، وشهد لها بالبراعة وحدَّة الذكاء نفس معارضيها؛ إذ قال المستر إدوراد جيرالد عند موتها: «الحمد لله، لن نرى بعد «أرورا» ثانيًا، ولست أنكر أنها امرأة على ذكاء غريب، ولكن ما فائدة كل هذا؟ ويا حبَّذا لو التفتت برهة ونظيراتها إلى شئون المطبخ.»

تاقت الإنجليزيات بعد ذلك إلى دخول معاهد العلم، ونيل الشهادات العالية، وأوَّل كلية فتحت بابها للنساء، كانت في شمال إنجلترا، إلَّا أنها لم تصرِّح بتلقي الدروس العالية مع الرجال، بل كلفت سيدتين بإلقاء محاضرات نسائية لهن، وكان ذلك سنة ١٨٢٠م.

طالبت النساء بعد هذا بما هو أرقى من تلقي الدروس العالية أسوة بالرجال، وألححن في الطلب، ففُتحت في وجوههن بعض الكليات سنة ١٨٦٥م، وفتحت كلية «كمبريدج» أبوابها لهن سنة ١٨٨١م، وتبعتها «أكسفورد»، ثم «اسكتلندا» و«لوندرا» و«دريين».

ومالت النساء إلى العمل، فنالت أوَّل طبيبة إنجليزية شهادة الطب من الولايات المتحدة، واشتغلت في إنجلترا سنة ١٨٥٩م، وألحَّت النساء في طلب تعليمهن الطب في إنجلترا نفسها، فصرحت لهن الحكومة بذلك، ونالت أوَّل طبيبة شهادة سنة ١٨٦٥م، ودخل بعدها في مدرسة الطب ثلاث فتيات، ونجحن نجاحًا باهرًا، فانعقدت اللجنة الطبية بعد هذا مباشرة، وقررت عدم قبول النساء في مدرسة الطب، لا لسبب آخر سوى

غيرة الرجال وحبهم لذاتهم، إلَّا أنَّ هذا لم يثْنِ همم الإنجليزيات عن المطالبة بحقوقهن، والسعي وراء ما أردن، بالرغم من كل هذه القوانين، فكن يذهبن إلى الولايات المتحدة فيتعلمن الطب هناك، ثم يعُدن فيفتحن المستشفيات في بلادهن، وأخيرًا وافقت الحكومة على دخولهن في جميع الامتحانات الرَّاقية، وفتحت أبواب عموم الكليات في وجوهن، وكان ذلك سنة ١٨٧٦م؛ أي منذ أربع وستين سنة فقط!

هذه حال إنجلترا منذ قرن تقريبًا، فكان يقال للمرأة إذا تكلمت في المواضيع العلمية: «ما لها ولذلك؟ الأولى بها أنْ تلتفت إلى شئون المطبخ.» وهو ما يقال لنا الآن.

ولكن الآن تغيرت حالهن، فشغلن كثيرًا من المراكز السامية، وكانت نتيجة ذلك رقي الأمَّة رقيًّا بهر العالم.

هذه تجربة جرَّبتها إنجلترا فنجحت، ومن العبث أنْ يقال بعد هذا إننا لو اقتدينا بهم في ذلك انحل نظامنا، أو يقال إنَّ عاداتنا الشرقية لا تسمح لنا بذلك بعد أنْ أظهرت — فيما تقدم — أننا كغيرنا من النساء في بعض العادات القديمة، وها هن أولاء قد تركن تلك العادات، فكان ذلك من أسباب رقيهن ورقي أممهنَّ أيضًا.

هذه أمريكا الشمالية، كان يسكنها الجنس الأحمر، وهم قوم متوحشون، لا فرق بينهم وبين الحيوانات، وأخصَّ بالذكر منها الولايات المتحدة … احتلتها إنجلترا، فاجتهد القوم في العمل — رجالًا ونساءً — حتى سبقوا أسلافهم الإنجليز في الحضارة والعمران، وساروا بالنساء إلى الأمام، فدخلن في جميع الأعمال؛ إدارية كانت، أو علمية، أو سياسية، فمنهن القائدات والرئيسات والمهندسات والكاتبات، ولهن الآن حق الانتخاب في بعض الولايات، فكانت نتيجة رقي المرأة تقدُّم الأمة بتمامها، ولم تعقها هذه الأعمال عن الزواج أو كثرة النسل — كما يقال — بل صارت الأمة هي أوَّل الأمم حضارة وتجارة وعمرانًا.

يعجبني من الإنجليزية حبها للعمل، وترفعها عن الكسل، وميلها إلى بساطة اللبس والاقتصاد في المعيشة، والاعتناء بنظافة المنازل والأطفال، وما أسعدنا نحن المصريين إنْ اقتدينا بها في مثل هذه الأمور؛ وأوَّلها الميل إلى العلم والعمل، خصوصًا أنَّ المصرية ذكية بفطرتها، فلندفع بفتياتنا إلى الاشتغال بالعلم الصحيح والعمل النافع، تاركات تلك الأوهام القديمة من ترك الفتاة متفرغة، والقول بأنها لن تكون قاضيًا أو رئيس مصلحة، فتلك أوهام ذهب بها الدهر، ولقد أصبحت قديمة بالية تضر ولا تنفع …

إننا إذا حبَّبنا إلى بناتنا العمل أصلحن منازلهن، بل أصلحن الأمة بأسرها، فإن العمل يصقل النفوس، ويجلو عنها صدأ البطالة والكسل، كما تجلو الحركة صدأ الآلات

المعدنية، فمَن كانت منَّا فقيرة فلتسعَ فيما يصلح شأنها، ومَن كانت غنية فلتعمل لإصلاح غيرها من الفقيرات.

لست أنصح للفتاة بأكثر من الالتفات إلى العلم، والبعد عن الكسل والفراغ، وهذا كل ما يصلح حالها، فإن العلم يفتق الأذهان، ويجعل الفتاة تشعر بما يحيط بها، فتعلم عن خبرة الفرق بينها وبين غيرها من الغربيَّات، فتصلح من شأنها، كما تعرف قيمتها في الحياة، فتحتقر الزينة، وترى أنَّ من النقص تضييع الوقت فيها، خصوصًا إذا كانت مشتغلة بعمل نافع، وليس من يكون له من نفسه دافع إلى الشيء كمن ينصح له غيره به، فقد لا يصادف قول غيره قبولًا من نفسه، وقد يخطئ فهم النصيحة فلا يقبلها، وأوَّل دليل على ما أقول أننا أكثرْنا من النصح للفتاة بعدم التبرُّج، فلم يفدها ذلك، بل ازدادت في الزينة التي نُهيت عنا «... وأحب شيء إلى الإنسان ما منعا.»

نصحنا لها بلبس الحجاب الشرعي، فكانت النتيجة أنْ تفنَّنت في هذا الحجاب، حتى أصبح أشد ضررًا على الآداب من سابقه.

لهذا لا أرى من الحزم أنْ أنصح للفتاة بأي لبس كان، ولكني أقول علموها العلم الراقي؛ لتنصرف إليه عن الزخرف والزينة، وتترفع عن أنْ تكون ألعوبة في نظر المارة، فتظهر بمظهر الحشمة والوقار، ولا يهمنا على أي شكل لبسها، ما دام على هيئة تدل على رقي الآداب، واتِّباع الدين الحنيف من ستر الزينة فقط.

الفرق بين الرَّجل والمرأة

واستعداد كل منهما للعمل

تَغَالى الرجال في تعداد الفروق الكثيرة بين الرجل والمرأة، حتى كاد الإنسان يظنهما نوعين متباينين، وإني — مع احترامي لآراء الرجال — أرجو أنْ أقرِّر أمامهم ما أعتقده؛ عساي أنْ أذكرهم بشيء ربما تركوه سهوًا.

الإنسان حيوان يجب أنْ ينطبق عليه ما ينطبق على الحيوانات الأخرى من قوانين الطبيعة العامة كالتناسل، ثم النمو، فالذبول والفناء، ولم يختلف الذَّكر في الحيوانات عن أنثاه إلَّا في مسألة التناسل، فإن صحَّ أنَّ القط يختلف في مواهبه الفطرية عن القطة، يصح أنْ يكون هناك فرق بين الرجل والمرأة من جهة المواهب العقلية والعادات، على أنه لم يقرِّر أحد من علماء الطبيعة أنَّ القطة تحب اللعب والقفز، وتفترس الفئران، وأنَّ القط عاقل رزين، لا يؤذي فأرًا، ولا يسرق لحمًا، بل وصفهما بصفات واحدة، كما أنه لم يقل أحد من الناس إنَّ الكلب أمين فَطِن، وإنَّ الكلبة خائنة غبية، مع أنَّ كلًّا من القط والكلب أقوى عضلًا وأكبر جسمًا من أنثاه، ولكنه لم يختلف عنها في المواهب والعادات.

فكيف إذن نقرِّر أنَّ المرأة خدَّاعة ماكرة، وأنَّ الرجل صريح صادق لا أثر للخداع في نفسه؟ نقول ذلك ونستدل عليه بكل شيء، حتى بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[1] مع أنَّ هذه الآية نزلت في جماعة مخصوصة من النساء، وقد جاء في

[1] سورة يوسف، آية ٢٨.

آيات كثيرة اتصاف بعض الرجال بالمكر، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾.[٢] نسي الرِّجال كل هذه الآيات، ولم يحفظوا إلَّا آية واحدة، وجعلوا معناها عامًّا لجميع النساء.

رأى الرِّجال أنَّ الرَّجل أقوى عضلًا وأكبر جسمًا من المرأة في الغالب، وتبع هذا — طبعًا — كبر مخه عن مخها، فقرَّروا ذلك، وبنوا عليه فروقًا كثيرة متشعبة، ونسوا أنَّ هذه سُنة الطبيعة في جميع المخلوقات، فالثور أكبر جسمًا — ومخًّا — من البقرة، ولكنه لم يفقها في الذَّكاء، ولم يفهم في اكتساب رزقه أكثر منها، والدِّيك أكبر من الفرخة كثيرًا، وأقوى عضلًا وبأسًا، والأسد أكبر من اللبؤة وأشد منها، والحمار أشد من الحمارة … هذه سُنة الطبيعة لا يُقصد بها إلَّا غرض تناسلي محض، والمشاهد يرى أنَّ هذه القوة في الذكور يتبعها طيش وولوع بالإناث.

ولم يقل أحد إنَّ الكلب لقوته يفوق الكلبة ذكاء، وعلى هذا فلا صحة لما يقال من أنَّ الرجل أكثر ذكاءً من المرأة؛ لأنه أقوى عضلًا وأكبر جسمًا منها، ولو صحَّ ذلك، لكان نُبغاء الأمم وفلاسفتهم من أكبر الناس أجسامًا، والحقيقة ربما عارضت ذلك، ومنه يصح أنْ نستنتج أنَّ المرأة أكثر ذكاءً من الرجل؛ لأنها أقل جسمًا منه، ولست أتغالى — كالرجال — بل أريد أنْ أقول إنَّ المرأة والرجل شيء واحد، كباقي الحيوانات التي اعترف علماء الطبيعة بتساوي الذكر منها بالأنثى، فلم يفردوا للفأر بابًا وللفأرة غيره، ولم يقل أحد منهم إنَّ الفأر لشدَّة قوته عن الفأرة قد خُلق ليكون القيِّم عليها في معيشتها، بل الحقيقة أنها تعيش مثله، ولا تعتمد عليه في شيء؛ لأن الطبيعة لم تجعلها في حاجة إليه، أكثر من أنْ يكون هو في حاجة إليها، فهما متساويان، وكذلك الحال في الرجل والمرأة، فهي وإنْ كانت أقل جسمًا وقوَّة منه، ولكن لها من الأعضاء التي تؤهلها لقضاء جميع حاجاتها ماله تمامًا، فهي مستقلة عنه لا تحتاج إليه أكثر مما يحتاج هو إليها، فهي تقوم بكل ما يمكنه عمله … كما يقوم الرجل القصير النحيف بأكثر مما يعمله الطويل الغليظ، فالقول بأن الطبيعة أعدتها للمنزل؛ لضعفها عن الرجل قول لا صحة له، وإلَّا فماذا نقول عن النعجة وهي مع ضعفها عن الخروف تعيش مثله؟!

يستدل الرِّجال على زيادة ذكاء الرجل عن المرأة، بكثرة النبوغ في الرجال عنه في النساء، وفاتهم أنَّ الإنسان لا ينبغ في شيء إلَّا إذا تعلَّمه جيدًا ثم انقطع إليه؛ لذلك لم

[٢] سورة إبراهيم، آية ٤٦.

نرَ بين فقراء الرِّجال الذين اشتغلوا بالطباخة والخياطة وقضوا زمانهم فيها، من نبغ في العلوم والمعارف مهما كان استعدادهم الفطري، فكيف ننتظر من المرأة نبوغًا بعد أنْ اقتصر أغلب النساء على ملاحظة المنازل، وتعلُّم ما يتعلق بها؟ حتى إذا فُرض وتعلمت إحداهن غير ذلك، انقطعت عنه بمجرد دخولها في الحياة الزوجية، وتفرغت لأعمال المنزل على كثرتها، ومع ذلك فقد نبغ منهن عدد لا يستهان به في البلاد التي اعتنت بتربيتهن، مما يدل على حسن استعدادهن، وأنهن لا ينقصن عن الرِّجال في ذلك الاستعداد الفطري، وليس بينهن وبين الرجال أي فرق في المواهب والعادات.

نعم، إنَّ المرأة أرقُّ قلبًا وأسمى عاطفة من الرجل؛ لأنها تتأثر أكثر منه، وهذا مما يزيد اعتقادي أنها أكثر منه عقلًا وإدراكًا؛ لأن المجانين ينعدم فيهم التأثر والشعور بالمرَّة، حتى إنَّ المجنونة لا تشعر بأي ألم إذا رأت أنَّ ولدها الوحيد قد قُطِّع إربًا أمامها، بل قد ترى ذلك باسمة؛ لعدم إدراكها معنى الشفقة الحقيقية، ولو فُرض وتأثرت لزال هذا التأثر في الحال.

كذلك الأطفال الصغار، فإن عاطفة الشفقة والحزن غير نامية عندهم؛ لصغر عقولهم، وكذلك كان المتوحشون في الأزمان الغابرة لا يتأثرون برؤية الفظائع؛ لعدم تهذيب عقولهم ونموها، وهذا كله مما يدل على أنَّ التأثر والشعور يذهبان بذهاب العقل، ويتبعانه في القلَّة والكثرة.

والمرأة في ذلك الحنو لم تخرج عن الناموس في جميع الحيوانات الأخرى، فاللبؤة تحنو على أشبالها، وكذلك القطة … فهي تحنو على أطفالها، وتخاف عليها من أنْ يأكلها القط — الذي قد يكون أباهم — وهذا دليل آخر على ما قلت سابقًا من أنَّ الأنثى في الحيوان عمومًا، أضعف جسمًا وأكثر عقلًا من الذكر، وهو أقوى وأكثر طيشًا منها؛ لذلك كان قليل التأثر؛ لتجرده من عاطفة الحنو التي يبعث إليها حُسن الإدراك والتفكير، ولا أقصد بتأثر النساء صياح الجاهلات وعويلهن، فتلك عادة دفعهن إليها الجهل، وليس في المتعلمات من تأتيها، بل ربما كن أثبت من الرجال عند حلول المكروه، ولكني أقصد الحنو القلبي والعطف على الضعفاء، فهو في النساء أشد منه من الرجال، وهو دليل على كثرة العقل فيهن.

ومن أراد أنْ يرى مساواة المرأة بالرجل في المواهب الفطرية، فعليه أنْ يقارن بين الفلاح المصري الفقير وامرأته، فقد نال كل منهما من التجربة والعلم بأحوال الحياة ما ناله الآخر؛ ولذلك ترى الرجل كثيرًا ما يتعرَّف بتفوق امرأته عليه في حسن الرأي،

ويجاهر بأنه لا يعمل شيئًا إلَّا باستشارتها، وهي تشاطره العمل وتعرف كل أحواله — باطنها وظاهرها — حتى إنَّ بعض هؤلاء الفلاحين قد يموت ويترك أيتامًا كثيرين، وبعض العقار — كفدَّان أو نصف فدَّان — فلا يبلغ الأيتام رشدهم إلَّا وقد زاد هذا العقار بحسن تدبيرها.

أمَّا المقارنة بين عقل المدني وعقل امرأته، فهي مغالطة بعيدة عن الصواب؛ إذ كيف نقارن بين عقل رجل هذَّبته العلوم والمعارف، وحنَّكته الخبرة والتجربة، فنما وبلغ أقصى ما يُمكنه من الرفعة، وعقل امرأة تُركت من صغرها في زوايا النسيان، فتراكم على عقلها صدأ الكسل والبطالة، فأفقده رونقه الطبيعي، وأتلفه كما يُتلف الصدأ الآلات الحديدية، وليته تُركَ ونفسه لينمو بطبيعته، بل عيق نموه بالحَجْر على مواهبها، والضغط عليها، وبُعدها عن تجربة الحياة الحقيقية بعدًا شاسعًا، فهي أسوأ حالًا من الفلاحة؛ لأن الفلاحة تعيش عيشة الوهم والخيال، فهي — وإنْ لم تتعلم في المدارس — على علم تام بمعترك الحياة الحقيقية، أمَّا هي فقد جهلت العلم والعمل، وكانت حياتها أقرب على الموت منها على الحياة، فإذا قارنَّا بين عقلها وعقل زوجها المتعلم المجرب، كنا كمن يقارن بين قطعة قطن عتيقة، تُركت مدَّة من الزمان في محل مهجور، فتراكمت عليها الأتربة والأقذار، وبين قطعة من نسيج قطني جميل، يكاد يحسبها الناظر إليها حريرًا؛ لحسن رونقها، وبهجة لونها، ونعومة ملمسها، فهل يستدل من تلك المقارنة إلَّا دليلًا قاطعًا على جهل المقارن وضيق عقله؟ فلا يغرنا ما نراه من الفرق بين عقل الرجل والمرأة، ما دامت تربيتها مختلفة، ولنسع إلى تعليمها تعليمًا واحدًا؛ لنعرف أنهما — كباقي الحيوانات — لا يختلفان إلَّا في أمور تناسلية محصورة.

نعم، إنَّ الإنسان يمتاز عن الحيوان بكثرة الإدراك؛ ولذلك رأى الرجل والمرأة أنه من الحكمة أنْ يُقسَّم العمل بينهما ما داما شريكين، فيأخذ كل منهما عملًا خاصًّا به، وهي فكرة اصطلاحية ليس للطبيعة يد فيها، قد أوافق على رفضها ما دامت المرأة متزوجة، أمَّا إذا لم يتيسر لها ذلك، فهي شخص مستقل يجب أن تقوم بكسب قوته، كما يجب أنْ تتعلم ذلك من صغرها، حتى لا تحتاج إلى اكتساب القوت بالأعمال الدنيئة التي لا تناسب ضعفها — المزعوم — كالخدمة والبيع وغيرها، إذا علمنا كل هذه الحقائق الطبيعية التي لا تحتاج إلى برهان، أفليس من المستغرب بعد هذا أنْ يكتب الرجال المقالات في تعريف المرأة، كأنها حشرة من الحشرات الضعيفة التي لم يعرف كنهها إلى الآن؟!

كما قال حضرة الفاضل فريد أفندي وجدي في دائرة المعارف: «المرأة كائن شريف، جُعل لإكثار النوع الإنساني، ولا يستطيع الرجل أنْ يباريها في ذلك.» فهل المرأة وحدها تستطيع إكثار النوع الإنساني؟ وإنْ كان هذا التعريف يشمل الرجل لمشاركته لها في هذا الإكثار، فهل يصح أنْ نقول إنَّ الإنسان كائن شريف جعل لإكثار نوعه؟ وهل يكون هذا تعريفًا للإنسان؟ أم هو يشمل كل حيوان آخر؟ إذن … فما الفائدة من هذا التعريف؟ وكأن الرِّجال يريدون أنْ يختلقوا فروقًا بين المرأة والرجل لا يقوون على فهمها، فهم يرسلون الكلام في ذلك جزافًا لا معنى له، أمَّا كون الرجل لا يباريها في ذلك فهو من الغريب، وإذا كان الرَّحى لا تطحن الدقيق إلَّا بحجرين، لا يباري أحدهما الآخر في عمله، ولو فُقد أحدهما لتعطل العمل كله، نقول إنَّ فلانًا لا يُبارى في الكتابة إذا كان يكتب هو وحده ما لا يستطيع غيره كتابته، أمَّا إذا كان لا يكتب إلَّا إذا ساعده غيره، فكيف يقال إنَّ غيره لا يستطيع مباراته؟! كل هذا التعريف الذي لا معنى له اضطرَّ إلى إيراده الكاتب؛ لقلَّة ما لديه من البراهين، ويريد حضرته بذلك أنْ يُظهر عدم صلاحية النساء للقيام بالأعمال؛ لأنهم لا يقوين عليها، وأنه رأى في معامل أمريكا ما «فتَّت كبده» من مشاهدة النساء وهنَّ يكافحن النار أمام القدور! فيا سبحان الله، رأى ذلك في أمريكا ولم يره في مصر! ولا أدري كيف أغمض عينيه فلم يرَ البائعة المصرية وهي تئن تحت عبء ثقيل من الفاكهة أو الخضروات، وتتقاذفها الطرقات، ويتناولها سفهاء الرجال بأنظارهم وأيديهم؟! لم يرَ هؤلاء النساء المصريات المسلمات اللائي يعشن من غسيل الملابس للبيوت المختلفة، والجيوش المصرية والإنجليزية، هذا العمل الصعب الشاق الذي لا ضمان معه على العفاف، تقاسيه المرأة المصرية المسلمة، فهي فضلًا عن مكافحتها النار التي تغلي بها الملابس تقاسي حرارة الماء، الذي يكاد يُخرج الدم من كفَّيها، ألم يرَ حضرته الفاعلة وهي تصعد على الجدران بحملها الثقيل من الطين والحجارة؟ ألم يرَ الخادمات في البيوت اللائي — فضلًا عن مكابدتهن الأعمال الشاقة — هن عرضة لأهواء الرجال الأجانب، يلعبون بعفافهن ما شاءوا وشاء لهم الهوى؟ أغمض الكاتب عينيه عن كل ذلك، فلم يرَ إلَّا عاملات أمريكا! وفات حضرته شيء واحد، وهو أنَّ ما اعتاده الإنسان لا يراه غريبًا إلَّا إذا فكر فيه بعين الرؤية، فالمرأة المصرية تشقى في مصر شقاءً حقيقيًّا ولا نشعر بذلك؛ لأننا اعتدنا أنْ نراها كذلك، ويُلفت نظرنا شقاء النساء في معامل أمريكا، مع أنه أقل من شقائهن عندنا، وذلك لغرابته علينا.

إنَّ المصرية ليست ممنوعة من جميع الأعمال الشاقة، وهذا مما يدل على أنَّ المرأة مدفوعة بحكم الضرورة إلى العمل؛ ولأنَّا لم نعلمها عملًا مريحًا، فقد قامت بتلك الأعمال

الشاقة المتعبة التي لا تحتاج إلى تعليم، فهي وعاملات أمريكا في ذلك الشقاء سواء، لم تُمنع النساء عندنا إلَّا من الأعمال الرَّاقية فقط التي تحتاج إلى خبرة ودراية كالتحرير، وإدارة المحال التجارية، والمعاهد العلمية، والطب الراقي، والتوظف في مراكز الحكومة السامية، والاشتغال بالمحاماة، فتحريمنا العمل عليهن دفعهن إلى العمل الشاق المتعب، الذي لا كسب فيه إلَّا الكفاف … فهل هذا عدل؟ وهل يدعو إلى ذلك من يدَّعي أنه يهتم براحة النساء؟

إني لو وجدت في استطاعة كل امرأة أنْ تجد دائمًا من يعولها ويسهر على راحتها، فلا تحتاج إلى العمل مطلقًا، لكنت أوَّل من يقول بإبعاد النساء عن الأعمال، ولكني أرى المرأة مسكينة، محتاجة إلى كسب قوتها بالأعمال الشاقة المتعبة التي تقضي على عفافها وطهارتها، ومع ذلك يقول فضلاء الرجال منا بعدم إعدادها للعمل الذي تستطيع معه، حفظ كرامتها وعفافها وإنْ أرادت، فكأنهم يريدون أنْ يقضوا عليها بالشقاء.

ويقول حضرة فريد أفندي وجدي: «… إذا لم تجد المسلمة من يعولها، فلنا نحن المسلمين بيت مال!» فأين هو ذلك البيت؟! وأمامي ألوف من المسلمات في أشد الحاجة إليه؟ سامح الله الرِّجال، كأنهم يريدون في مسألة المرأة مجرَّد سرد كلام لا حقيقة له، ولو عرفوا الحقيقة لعلموا أنهم يهدمون بأيديهم، فإن المرأة كثيرًا ما تكون أم لصبية أيتام، فلو أمكنها الكسب لقامت بتربيتهم أحسن تربية؛ ليكونوا في المستقبل رجالًا عاملين.

إنَّ الأُسر الغنية والمتوسطة في مصر عاجزة عن الاحتفاظ بمكانتها؛ لأنها تنظر بعين واحدة، وهي الرجال، فإذن فقد عميت الأسرة، وضلَّت سواء السبيل، فانحطت الأبناء، وعجزت الأم عن تربيتهم لقلَّة المال، فأصبحوا متشردين لا عمل لهم، فجهل الأم سبب جهل أبنائنا الذين هم رجال الأمة في المستقبل …

أمَّا نظيراتها من الأسر الغربية فهي تنظر بعينين، فإن فقدت إحداهما أرشدتها الأخرى إلى مراقي الفلاح، فإذا مات الرجل قامت امرأته بإصلاح الأسرة بعده، واكتسبت من المال ما يمكِّنها من تعليم أبنائها تعليمًا صحيحًا، ينفعون به أنفسهم وبلادهم المحبوبة، فتعليم المرأة كان سببًا قويًّا في تقويم الأسرة التي تتكون الأمة منها …

ويقال إنَّ المهندس الذي قام بعمل القنطرة العظيمة بين «نيويورك» و«بركلين» مات قبل تتميم ذلك العمل الصعب، ولم يكن قد جنى ثمرة أتعابه، فقامت امرأته باستكماله؛ لأنها كانت تشاطر زوجها العمل، وتمدُّه برأيها، وتعرف كل ما يحيط بذلك الموضوع، فاكتسبت من المال ما ساعدها على تربية أولادها تربية عالية نافعة، فكانت

بعلمها أمًّا مدبرة في حياة زوجها، وأبًا نشيطًا غيورًا على مصالح الأسرة بعد وفاته، فأين ذلك من حالنا نحن المصريين؟ فقد يموت الرجل فتُهمل لموته تربية أولاده؛ لعجز أمهم عن اكتساب المال، فتنهدم أسرة بأكملها بموت فرد، وليت الأمر يقف عند ذلك الحد، بل قد تكون هي وأولادها عالة على أخيها أو قريبها، فتحمله عبئًا ثقيلًا، لا يستطيع معه حسن القيام على تربية أولاده التربية التي كان يتمناها لهم، فيقتصر على تعليمهم الابتدائي لقلَّة المال، فيعوق موت الرجل الواحد أسرتين عن الرقي والتعليم، هذا فضلًا عن انشقاق الأسرة على نفسها؛ لتفرغ نسائها الكثيرات للمشاغبة والشقاق، فقد يعول الرجل أختين أو ثلاثًا، وينشأ عن منافستهن مع امرأته ما يُنغِّص عليه عيشه وهناءه، فيؤثر ذلك على نفسه وصحته، وربما عاقه عن أداء عمله بالإتقان الذي يُنتظر منه لو كان مستريح البال، فيُسبِّب جهل النساء بالعمل عدم تعليم الأبناء، وارتباك الرجال في أعمالهم، ولا يخفى ما في ذلك من انحطاط الأسرة، ولو تعلَّم هؤلاء النساء لنفعن أنفسهن وأبناءهن، وأرحن أقاربهن، ولارتقت بذلك الأسرة التي تتكون منها الأمة وبها تحيا.

ومن الجهل أنْ نقول إنَّ الدين الإسلامي لا يبيح العمل للنساء، ونحن نرى أنَّ فقراء المدنيين وفقراء الفلاحين، بل ومتوسطي الثروة منهم تشاطرهم نساؤهم العمل وتكاتفهم فيه، فهل حكمنا على هؤلاء بالكفر، وهو ما لا يسمح لنا به الدين؟ على أنَّ هذه الأسر هي عماد مصر ومنبع ثروتها، وعليها يترتب رقي البلاد، ولو كانت كالأسرة الغنية في كسل النساء، وعدم قيامهن بالأعمال النافعة، لقُضِي على حياة الأمة بتمامها، ولم ننكر على الغنيات الاستعداد للقيام بالأعمال الرَّاقية التي تناسب مقامهن إذا دفعتهن الحاجة إلى الكسب، وقد سمحنا بالعمل للفقيرات والفلاحات، فهل للدِّين دخل في ذلك مع أنه لا يشترى بالمال؟ فكيف تناله الغنية وتعجز عنه الفقيرة؟ إنه لخير لنا ألَّا نُدخل الدِّين في ذلك، بل نقول هي العادة التي كان منشؤها الجهل، وعدم تقدير الأحوال حق قدرها.

مما يدهشني أنَّ أكثر الرجال كراهة لإعداد النساء للعمل، هم من نشئوا في القرى، فهم يعارضون قيام المرأة بالأعمال الرَّاقية في المدن، مع أنَّ قريباتهم لا يزلن يقمن بأعمال الرجال في القرى، وهن — على ما أرى — أفضل من المدنيات سلوكًا، وأحشم منهن زيًّا، فلِمَ يعدلون عن سُنَّة أمهاتهم إذن؟ هل كشفوا فيها من عيب جعلهم ينفرون منها؟ بل الحقيقة أنهم يتبعون في ذلك المدنيين؛ حبًّا في الظهور بمظهر الحضارة والمدنية، دون أنْ ينظروا إلى أية هوة تلقي بهم فيها تلك الحضارة الفاسدة، فيستبدلون ذلك النقاب المصطنع، والذي يدل على الكذب والغش، أكثر من دلالته على الستر، واتِّباع الدين

بزي الفلاحة الفطري، ومشيتها الطبيعية التي هي أدعى إلى احترامها، لا مجرَّد استمالة الناس إليها، فهي وإنْ قابلت الرِّجال أبعد عن مطامعهم من تلك المدنيَّة التي تُغريهم بشكلها، وزخرف ملبسها، فيحتالون في التقرب إليها جهد استطاعتهم.

سيقول بعض المعاندين إنَّ في القرى فسادًا، ولا أدري ... هل يدَّعون عدم وجوده في المدن؟ إنَّ الفساد لا يزول إلَّا إذا زالت الدنيا، فهو موجود على كل حال، ولكنه في المدن أكثر منه في القرى، فالفاسد على جهله يحترم الدين، ويتظاهر باتِّباعه، وإنْ كان فاسدًا في باطنه، هل نرى في القرى رجلًا تبع امرأة ليغازلها في الطريق؟ إنه لو فعل ذلك لربما قتل في الحال، مع أنَّ النساء تسير هناك بلا نقاب؛ وذلك لأنَّ الرِّجال هناك يعلمون أنَّ للنساء أعمالًا يقمن بها خارج المنازل، فهن يخرجن لها لا للمغازلة، أمَّا المدن فيتوهمون ألَّا عمل للمرأة خارج منزلها، فإذا رأوها في الطريق اعتقدوا أنها خرجت للعب، وساعدهم تبرُّجها على ذلك الاعتقاد فيحتكون بها، فالعمل إذن وسيلة لقمع الفساد لا لإكثاره.

لو علم الرجال كل ذلك لرأوا أنَّ من الواجب أنْ تتعلم كل فتاة اكتساب العيش من حرفة تناسب مقامها إذا احتاجت إلى ذلك، فنحن نجني على الفتاة الذَّكيَّة الرفيعة المقام جناية فظيعة، وندفعها إلى الخدمة إذا احتاجت وهي لا تستطيعها، وربما دفعناها إلى الفجور.

وتعلمها هذه الحرفة لا يمنعها من أنْ تكون زوجًا راضية بالرَّاحة في المنزل، متى وجدت الزوج الكفء، ومَنْ مِنَ الناس يجد الراحة ويطلب غيرها؟ وهذا مشاهد في إنجلترا وسويسرا وألمانيا وغيرها، فالمرأة تعمل إلى أنْ تتزوج، وهناك تنكمش في بيتها، فتصبح أحسن الأمهات نظامًا وترتيبًا، وعنايةً بالأطفال، وتسلية للزوج، وحاشا أنْ أقصد بخروج المرأة جلوسها على قارعة الطريق، أو تجولها في الشوارع بلا سبب جوهري، فإني أشد معارضة لذلك، ولكني أقول بوجوب تعلمها العمل والقدرة عليه، فهي إنْ خرجت تخرج له لا للهو.

كيف تُربَّى الفتاة المصرية؟

إنَّ المرأة كالرجل عقلًا كما قدَّمت، فما يَصلح في تنمية عقله يصح أنْ ينمي عقل المرأة، ويربي إدراكها عند غرس المعارف العمومية، وتربية إدراك الأطفال، ولا بأس بعد ذلك أنْ يستعد كل منهما لعمله الخاص … هذه حقيقة يعلمها كل مُنشغل بفن التعليم، ولكن بعض الناس يجهلون ذلك، ويحاولون إخراج النساء من طبيعة الإنسان، فيخترعون لهن المناهج المختلفة حتى في التعليم الابتدائي، ويبحثون عمَّا ينمِّي عقولهن بعد أن اهتدوا إلى ما يُنمِّي عقول الرجال، وعرفوا أنَّ الرجل ينجح في هذه الحياة بقدر اتساع معارفه في مختلف العلوم، ولكنهم يُنكرون تطبيق هذا على حالة المرأة، ويدأبون في عمل مناهج خاصة بها، تاركين ما استنبطوه بالتجارب من تنمية عقل الرجل وهي مثله، فكأننا نرجع بها إلى الوراء، أيام كان الناس يجهلون ما ينجع في تربية العقول، ويظنون أنه يجب على كل إنسان أنْ يتعلم ما يتعلَّق بعمله لا يزيد عليه، وما زالوا في أخذ ورد إلى أنْ وصلوا إلى ما وصلوا إليه الآن، ولو طبقوا ذلك على حالة المرأة لكان أولى بهم؛ لأنها أنثى الرجل، لا تختلف عنه إلَّا في أمور محصورة، فلِمَ يتركون تلك النتيجة الناضجة، ويوالون التجارب ليعرفوا ما يصلح لحال هذا الإنسان؟! ولا أظن أنَّ هذا البحث يوصلهم إلى غير هذه النتيجة التي وصلوا إليها في شأن الرجل لو أنصفوا.

يزور عظماؤنا مدارس البنين، فيلتفتون إلى ذكاء التلاميذ ومقدار ما أحرزوه من مختلف العلوم، وإذا زاروا مدارس البنات عادوا منها بمدح التطريز! وأكثر ما يعجبهم هو التفات أصحاب تلك المدارس إلى وضع منهج خاص يوافق حالة الفتاة الصغيرة … فيا سبحان الله! ألم تُعتبر البنت إنسانًا يوافقه ما يوافق الإنسان من التربية الحسنة، أم هي مجهولة إلى الآن؟!

على أنَّ الاختلاف في تربية الأطفال كان أول الأسباب الدَّاعية إلى نفور الزوجين وعدم اتفاقهما؛ إذ كيف يعقل أنْ يتفقا وهما مختلفان في المشارب والأميال؟ فهذا تربَّى على مبادئ صحيحة وعلوم راقية، واختلط ببعض الأمم الأجنبية الرَّاقية، وتعلَّم لغتها فتأثَّر ببعض عاداتها الحسنة، ووصل إلى حقائق لم يصل إليها الجاهل، فهو يميل إلى العلم والنبوغ، أمَّا الفتاة فتقتصر في الغالب على تعلُّم التطريز والطبخ والغسيل والقراءة والكتابة بلغتها، فهي جاهلة لا تميل إلى غير ذلك، وهي لا تتفق مع رجل متعلم تطربه المناقشة العلمية، ويعجبه الوصول إلى الحقائق «وهل يطابق معوج بمعتدل؟!» يُربَّى الرَّجل تربية تناسب هذا العصر، وتُربَّى الفتاة تربية قديمة بالية، فكيف لا يترفَّع عن مخالطتها، وينصرف عنها إلى الأجنبيَّات؟!

ولقد ناقشني في التربية الحديثة سيد مصري تزوج بأجنبيَّة، فقال لي: إنَّ اقتداءنا بأوروبا في تعليم النساء يفسد حالهن الاجتماعية، فقلت: مهلًا أيها السيد، إنك معجب بالتربية الأوروبية؛ ولذا تزوجت هذه السيدة، وهي في اعتقادي لا تفوق كثيرًا من فتياتنا في الجمال والذكاء الفطري، ولكنك ملت إليها لما هي عليه من المعارف، فهل يسوءك أنْ نصوغ لك ولأمثالك من فتياتنا أمثال هذه السيدة؟ وإنْ كان يعجبك تربية الفتاة المصرية الآن، فلِمَ أعرضت عنها؟

نعم، كان في اختلاف تربية الرجل عن تربية المرأة خطر عظيم على رابطتهما، وضرر بليغ على الأمة، فإن الأمَّة كجسم يتكون نصف أجزائه من الرِّجال، والنصف الآخر من النساء، ولا بُدَّ لنجاح هذا الجسم من أنْ تتناسب أجزاؤه، فهو لا يستطيع المشي والحركة إذا كانت إحدى رجليه طويلة قوية والأخرى قصيرة ضعيفة، بل ربما كان صِغَر الرجلين معًا خيرًا له من طول إحداهما وقصر الأخرى؛ ولهذا نرى أنَّ أُسر الفلاحين الفقراء أكثر منا نجاحًا في أعمال الدنيا، وأقوى رابطة من أسرة المدنيين، فإن الأولى تستوي فيها معلومات الرجل والمرأة، أمَّا الثانية فيرتفع فيها الرجل إلى السماء علمًا ودراية، وتنحط المرأة إلى الحضيض في العلم والعمل والتجربة؛ ولهذا كانت الرابطة العائلية فيها مُنحلَّة ضعيفة، فالمرأة في الأولى شريكة الرجل ومساعدته، وفي الثانية عضو أشل يثقل كاهله ويزيد متاعبه، فرقُي الأمة لا يُنال إلَّا إذا تكافأ الرجل والمرأة في العمل.

إننا إذا لم نعلِّم الفتاة إلَّا ما يتعلَّق بأعمال المنزل، فقد أعدمنا مواهبها العقلية، ونزلنا بها من درجتها إلى منزلة الخادمات، وربما كانت هذه التربية الناقصة من أسباب

انحطاطها، وتأخرها في الأعمال المنزلية، وكما أننا لا نربي الطفل من صغره عادةً لأن يكون طبيبًا أو محاميًا أو مهندسًا فقط؛ بل نربيه قبل ذلك تربية عامة، وقد نختار له نحن ما سيكونه، كذلك يجب أنْ نُربي البنت تربية عامة شبيهة الولد، ثم تختص بعد ذلك بالمنزل.

وهؤلاء شبابنا يتعلمون في مبدأ الأمر ما يتعلق بعملهم، وما لا يتعلق به مباشرة؛ رغبةً في تنمية العقل، فلا يُقبل الطالب مثلًا في مدرسة الطب إلَّا إذا نال شهادة الدراسة الثانوية، ولها يحفظ التلميذ آداب اللغة العربية، وآداب لغة أجنبية، وغير ذلك من تاريخ وجغرافيا، فما علاقة هذا بعلم الطب؟ أينتظر أنْ يُصرِّف الطبيب أمام مريضه فعلًا، فتنصرف عنه العلَّة؟ أو يطربه ببعض أشعار المتنبي فيخف ألمه؟ أم يتلو عليه كلمات شكسبير فتعود إليه صحته؟ أم يقصُّ عليه تاريخ السابقين فيُشفى؟ أم يتحفه بأسماء جبال الألب فيزيل بثلجها حرارة الحمى؟ بل لم يتعلم الطبيب كل ذلك إلَّا لتقوِّي مداركه، ويقوم بأعماله أحسن قيام، فتراه يستفيد من الزمن القليل الذي يمكثه في مدرسة الطب، أكثر مما يتعلمه الممرض الذي قضى حياته بين الأدوية والأمراض، ولو أنَّ الكفاءة بمباشرة العمل فقط، لكان بين الممرضين من يستحق الآن أنْ يكون رئيس مستشفى، وهو مع ذلك يعرف القراءة والكتابة، وربما تطفَّل على كتب الطب، ولكن كفاءته العلمية لا تؤهله لأن يكون طبيبًا، ولا تسمح له أية حكومة بذلك، إذا طبقنا هذا على حالة الفتاة، وجدنا أنَّ الفتاة التي لم تُرتَّب مداركها بمختلف العلوم، لا تصلح لأن تكون ربة منزل … تلك الدرجة السامية التي تكون فيها قابضة على سعادة الأسرة، مديرة لتربية أبنائها الذين منهم تتكون أمَّة الغد، تلك المنزلة هي أرقى المراتب وأسماها، ومع ذلك لم نهتم بتربية عقل صاحبتها قدر اهتمامنا بتربية الرجل، رغم أنها أولى والضرورة إليها أشد.

إذا علمنا ذلك وأضفنا إليه احتياج الفتاة إلى تعلُّم ما يقيها شر الحاجة إنْ احتاجت كما قدَّمت، وجب أنْ نهتم بتربيتها الجسمية والعقلية، ولا نضيع سني شبابها بين البطالة واللهو.

ولتقدير ما يجب أنْ تتعلمه الفتاة يجب أنْ نُحدِّد السن التي نخصصها لذلك، وإني وإنْ قلت الآن إنه لا يصح أنْ تتزوج الفتاة قبل سن العشرين ربما أغضبت كثيرين ممن يرون أنَّ هذا في معتقدهم لا يطابق العادات الشرقية والدين الحنيف، ولست أطيل البحث في ذلك؛ لأني أعلم أنَّ الحال الآن تضطر الفتاة — بالرغم منها ومن وليها — على

الانتظار إلى ما بعد سن العشرين، ولذا لا أرى من الحزم أنْ نتناقش في شيء لا يزحزحه جدال ... ولشرح هذا أقول:

قد اعتاد الرِّجال الآن ألَّا يتزوجوا إلَّا بعد أنْ يحصلوا على الشهادات العالية ثم يتوظفوا؛ أي بعد سن الثلاثين تقريبًا، وهي عادة حسنة تدل على رقيهم العلمي، ولا بُدَّ أنْ يسبب هذا تأخر الفتيات بالطبع، ولو على ما بعد العشرين فقط، وإذا كان هذا لا بُدَّ منه، فأنا في حِلٍّ من أنْ أجعل تعليم البنت إلى سن العشرين أو بعدها بقليل، وليس عليَّ ذنب في هذا التأخير، بل الذنب على الطبيعة في ذلك.

وربما عارضني في هذه الحقيقة كثير ممن يغرهم ما يسمعون من أعمار الفتيات، فقد اعتادت أكثر فتياتنا أنْ ينقصن من أعمارهن اتباعًا للعادة القديمة، فلا نرى الآن من الفتيات من تقول إنَّ عمرها فوق السابعة أو الثامنة عشرة، ومن العجب أنك لو سألتها بعد مضي عدَّة سنوات لأجابتك بمثل هذا العمر الذي تجيبك به اليوم!

كأنَّ هذه السنين التي تمر لا تُحسب من عمرها، ولقد صدقت؛ فقد مرَّت هذه السنون بدون أنْ تستفيد منها شيئًا غير تضييع الوقت، وربما فساد الأخلاق.

عرفنا أنَّ الفتاة يجب أنْ تستنير بالمعارف الرَّاقية؛ لتلائم الرجل المتعلم مَيلًا ومشربًا، وعرفنا أيضًا أنها تحتاج إلى تعلُّم علم أو فن، كما عرفنا أنها مضطرة — بحكم الرقي الجديد — أنْ تنتظر بلا زواج إلى ما بعد سن العشرين في الغالب، فيجب بعد هذا أنْ تصرف ذلك الزمن في شيء مفيد، لا في البقاء في المنزل وانتظار ما يأتي به القضاء والقدر ... ولهذا أقترح النظام الآتي:

تدخل الفتاة المدارس الابتدائية في سن السابعة، فتصرف بها ست سنوات؛ أي أكثر من مدَّة الأولاد بسنة، فتنال الشهادة الابتدائية في سن الثالثة أو الرابعة عشرة — لو فرضنا أنها تأخرت سنة — وفي سن الرابعة عشرة تدخل المدارس الثانوية، فتمضي فيها أربع سنوات أو خمسًا، وتنال الشهادة الثانوية في سن التاسعة عشر، وفي خلال هذه المدة السالفة تتعلَّم بالتدريج التدبير والخياطة، وهذا لا يعوقها عن تحصيل ما يُحصله الأولاد؛ لأن كلا العِلمين لا يحتاج إلى تحضير، بل ممكن أنْ تكون الخياطة تسلية في الفراغ ولا حفظ فيها، كما أنَّ التدبير المنزلي قد يكون استذكارًا لما يباشرنه في أوقات الفراغ، وقد سبق أنْ زادت البنت على الولد في نظير ذلك سنتين في الابتدائي، وسنة في الثانوي.

وهنا يجب أنْ تصرف البنت سنة في المدرسة الخاصة بالتدبير المنزلي، ويكون تلقِّيها هذا العلم في سن العشرين، وبعد أنْ استنارت بما ذكرت من المعارف سهلًا نافعًا، فيمكنها أنْ تُتقنه إتقانًا جيدًا في سنة أو سنتين بالكثير.

وفي سن العشرين — أو الحادية والعشرين — تستعد للحياة الزوجية إنْ وجدت إليها سبيلًا، وإنْ لم تجد كان خيرًا لها أنْ تلتحق بإحدى المدارس العليا إلى أنْ يتيسَّر لها ما خُلقت له — كما يقال — وهذا بالطبع أفضل لها من التفرغ للانتظار وضياع العمر فيه بلا فائدة، هذا ما نعلِّمه للنابغات اللائي لا يتأخرن، أما من تتأخر في نيل الشهادة الابتدائية إلى سن السابعة أو الثامنة عشر مثلًا، فيجب أنْ تتعلَّم بعد ذلك التدبير المنزلي سنتين كما قدَّمت، ثم هي في حِلٍّ أنْ تدخل مدرسة الممرضات، أو تتقن فن الخياطة أو غيره، ما دام لم يتيسَّر لها ما تنتظره.

هذا على ما أظن خيرٌ للفتاة من الفراغ والبقاء في المنزل تنتظر هذا الأمر الذي طالما تسمع أنها حُجزت بالمنزل لأجله، ولا شك في أنَّ هذا الانتظار كان السبب في فساد أخلاق الفتيات، وتفرغهن للمغالاة في الزينة، ولا بدع أن أعماهن الجهل والفراغ عن سلوك السبيل القويمة، وما يُتلف الأخلاق أكثر من هذين الأمرين؟

ولست أقصد بالشهادة الابتدائية أو الثانوية تلك المناهج حرفيًّا، بل أقصد ما يماثلها في الكفاءة العلمية، كما أني لا أريد أنْ تقتصر البنت من العلوم على القشور، فتبدأ ولكنها لا تنتهي إلى شيء يذكر، فالفتاة التي تتعلم مبادئ أوليَّة في الجغرافيا مثلًا، فتحفظ أسماء لا فائدة من تكرارها ليس من العدل أنْ تُحرم من ثمرة هذا العلم، وتنمية عقلها بمباحثه النافعة، كالجغرافيا الطبيعيَّة والرياضة، كما لا نحرمها لذَّة الفكر في البحث في العلوم الرياضية، بدعوى أنها لا تفيدها في عمل منزلها، ولقد شرحت الآن أنَّ تربيتها العقلية العالية تفيدها في أعمال المنزل وإنْ لم تتعلَّق به مباشرة، فهي تسدِّد رأيها، وتقوي تصورها، وتجعلها على مستوى واحد مع زوجها قلبًا وقالبًا، وربما ساوته في نفس أعماله ... كما كانت تفعل ذلك مدام كوري في الاكتشافات.

هذا رأيي ... وعلى السيدات الغنيَّات منا تنفيذه إنْ أردن إصلاحًا؛ إمَّا بحثِّ رجالهن على إنشاء مدارس ثانوية للبنات، وإمَّا بإنشاء هذه المدارس على نفقاتهن، ومن المستحيل أنْ يرتفع شأن النساء ما لم يسعَين في ذلك، ولقد مرَّ بنا كيف سعت الإنجليزيات في إصلاح حالهن، وكرَّرن الطلب في دخول المدارس والكليات أسوةً بالرجال، فنلن أخيرًا ما طلبن، ولو لم يكن للتربية التي ذكرتها من فائدة إلَّا اشتغال الفتاة عن التغالي في الملاهي والزينة لكفى بها رُقيًّا للأمة.

هذا ما يختص بالمدارس، إلا أنَّ التربية المدرسية لا تنجح إلَّا إذا عضدتها تربية منزلية صحيحة، فيجب أنْ تهتم السيدة بتربية بناتها داخل المنزل وتهذيب أخلاقهن، فترتب أوقاتهن التي يقضينها بالمنزل، فتجعل لهن وقتًا للمذاكرة وآخر للعب والرياضة، حتى ينشأن صحيحات العقول والأجسام، كما يجب أنْ تحُثهن على الأعمال في أيام الجُمَع والإجازات السنوية، حتى إذا درسن علم التدبير طبقن العلم على العمل، وأصبح النظام عادة لهن منذ نشأتهن، وكذلك أرجو أنْ تقوم المدارس الداخلية بالعناية بهذا، حتى لا يقع نظر الفتاة في المدرسة إلَّا على ما يجب أنْ تقتدي به متى كبرت من النظام والترتيب مع لفْتِهنَّ إلى ذلك من وقت لآخر، وبذلك تنشأ الفتاة على مبادئ التربية الحديثة.

ولست أريد بكلمة «التربية الحديثة» أنْ تقلِّد فتياتنا الغربيَّات في الزي وحضور المراقص، ولكني أريد ألَّا يكون لباسهن مانعًا لهن عن موارد العلم، بل أريد أنْ يكون موافقًا لما جاء في القرآن الكريم، من ستر الزينة وإظهار ما يدعو إلى الوقار والحشمة، فيكون شكلهن شكل احترام لا يحتقره العقل، ولا يمجُّه الذَّوق، وأنْ يكون في حركاتهن وسكاناتهن زاجرًا للرِّجال عنهن، فهن على ذلك — وإنْ أكثرن الخروج في طلب العلم — أبعد عن مطامع الرجال من تلك الجاهلة التي يكفي خروجها مرة في الشهر لأن تكون أحدوثة في البلد، تتناقلها الألسن إلى أنْ تظهر مرَّة أخرى.

التعليم الأهلي

إنَّ الأُمَّة كجسم واحد لا بُدَّ له من أعضاء كثيرة، تقوم بما يطلب منه من الحركة والعمل، ورأس مُفكر يُدبِّر هذه الأعضاء وينظم حركتها، فالأعضاء العاملة في جسم الأمة هم السوقة وهم سوادها الأعظم، أما الرأس فقادة الأمة من علمائها ونبغائها وحكمائها المتعلمين … ومتى صلح الرأس وأحسن التفكير، توجهت أعمال الإنسان إلى الخير، وصلحت بذلك أحواله.

فإذا أردنا بأمتنا خيرًا وجب علينا أنْ ندرك أنَّ في تعليم قادتها ونبغائها تعليمًا عاليًا صحيحًا يستطيعون معه إرشاد الأمة إلى ما فيه الخير والمنفعة، أما التعليم الأولي وحده فلا فائدة منه إذا اقتصرنا عليه، وإنما هو أساس تُبنى عليه دعائم التعليم العالي، فإذا ظهرت كفاءة الطفل في التعليم الأولي تخطَّينا به إلى ما هو أهل لمواهبه السامية، أما إنفاق جميع ما لدينا من المال في التعليم الأولى وعدم تقديرنا التعليم العالي حقَّ قدره … فمثلنا فيه كمثل رجل أمامه نهير صغير وصحراء واسعة.

فإذا أغراه الطمع والجهل، فحاول توزيع هذا الماء على جميع تلك الصحراء؛ ليُصلحها جميعًا ضاع هذا الماء فيها رشاشًا، ولم يستطع أنْ يجني بذلك ثمرة أو يُخرج شجرة واحدة، أما إذا أعمل فكرته، فاختار منها بقعة صغيرة فأصلحها ورواها بذلك الماء القليل، فقد وصل إلى غاية محمودة، وأخرج بعمله هذا بعض الشجر والنبات، حتى إذا كبر ذلك الشجر، وتمكنت جذوره من الأرض، وأصبح لا يُخشى عليه أمكنه أنْ يزرع غيره عامًا فعامًا، فيأخذ منه البذر لغرس ما يريده في المستقبل.

فالتعليم الأولي بدون التعليم العالي لا تأتي منه فائدة تُذكر، ولقد قيل في المثل الإنجليزي: «المعرفة القليلة أضرُّ من الجهل.» وليس هناك فرق بين فلَّاح فقير يعرف

مبادئ القراءة، وآخر أُمي لا يعرفها، ما دام الثاني يقوم بعمله في حرث الأرض وزرعها، كما يقوم به الأول، وما فائدة معرفة القراءة للفلاح الفقير، وليس لديه من الوقت ما يُمكِّنه من مطالعة ما يُفيده من الكتب، كما أنَّ كفاءته العلمية لا تؤهله لفهم تلك الكتب النافعة، فهو والفلاح الأمي في المنفعة سواء، ولا يُخشى من تقهقر الأمة لجهل فلاحيها ما دام في الأمَّة نُبغاء يستطيعون إرشاد الفلاحين إلى ما فيه النفع، ولا يعد الفلاحون عالة على الأمة ما داموا يستطيعون نفعها بما تجنيه سواعدهم القوية من النجاح في الزراعة، فلهم من العلم بأصولها عملًا وتجربة ما ليس لغيرهم، وكل ما يعرفه الإنسان فيفيد به نفسه وأمته يُعد علمًا نافعًا، والفلاح الذي يستطيع إنبات الفول والقمح أنفع للهيئة الاجتماعية من ذلك الفضولي الذي يستطيع كتابة تلك الكلمات فقط، لا يحسن غيرها، فهو يموت جوعًا لو لم يزرع له الفلاح ما يقتات به.

هذا وجميع الأمم الرَّاقية قد يجهل فلاحوها وسوقتها كل شيء، حتى التكلم بلغتهم، فقد يخطئ الفلاح الإنجليزي في التكلم بلغته، حتى لا يستطيع أنْ يفهم كلامه المتعلمون، وكذلك الفلاح الفرنسي، فله من اللهجة في الكلام ما لا يستطيع فهمه المتعلمون من الفرنسيين … ما داموا يجهلون التخاطب بلغة العلوم، فما الفائدة من تعليمهم مبادئ القراءة والكتابة؟

إنَّ الفلاح المصري الفقير يقوم بعمله بنجاح قد لا يستطيعه أمثاله في أوروبا، فهو في مقدمة الفلاحين قوَّة واجتهادًا، أمَّا الأغنياء منا فهم من أمثالهم في البلاد الرَّاقية علمًا ودراية، وهم أولى بأن يُعتنى بتعليمهم؛ لأنهم من قادة الرأي في الأمة، ولو تعلَّم كل عمدة التعليم الصحيح العالي، لقاد أهل قريته إلى سواء السبيل، فنفعهم بعلمه ومباحثه، وأفادوه بقوة سواعدهم ومثابرتهم على العمل.

ومن المغالطة أنْ يُقاس رقي الأمة بعدد من يعرفون الحروف الهجائية فيها، وإنما يعرف رقي الأمة بعدد نبغائها وسداد رأي قادتها، فإن الأمة التي تفوز في ميدان الحرب لا تجني ذلك الفوز لمعرفة جميع جنودها مبادئ القراءة والكتابة، وإنما تحرزه بما يبديه قادتها من الرأي السديد والحكمة في تنظيم الجيوش، وهذه إنجلترا … لم تسُدْ في مؤتمر السلام الذي عقد في «فرساي» سنة ١٩١٩م؛ لمعرفة فلاحيها القراءة والكتابة، ولكنها سادت برأي وزير واحد أمكنه — لنبوغه — أنْ يؤثر في نفوس غيره من أعضاء ذلك المؤتمر، وساعده في ذلك قادة الأمة بالرأي السديد.

لهذا كان من العبث أنْ نترك التعليم العالي، ونهتم بالتعليم الأوَّلي فقط، ولقد تغالينا في ذلك حتى أصبح الناس ينادون بتعليم أولاد الباعة والخدم، ومساحي الأحذية، مع

أنَّ أبناء هؤلاء المصلحين الذين ينادون بتعليم السوقة لم يُوفَّقوا في نَيل ما يليق بهم من التعليم، فبلدنا — والحمد لله — خالٍ من المدارس الأهليَّة الرَّاقية، وكل مدارسنا تكاد تكون خالية من التعليم الصحيح، لم يُفتح في مصر إلى الآن إلَّا كلية واحدة، وهي — عكس الطبيعة — تتأخر عامًا بعد عام، ولو أنصف هؤلاء المصلحون لتركوا السوقة للبيع والخدمة، وساعدوا أنفسهم وأبناءهم بمساعدة هذه الكلية وفتح غيرها من الكليات النافعة، وإرسال إرساليات إلى أوروبا تتعلم في أحسن كلياتها، فتنقل إلينا أفكار تلك الأمم الرَّاقية وأساليبهم في التعليم.

لا يضر أمتنا أنْ يكون ابن الخادم خادمًا مثله، ولكن يعوزها وجود رجال أكفاء يسيرون بها في مراقي الفلاح، ولا سبيل إلى نيل ذلك إلَّا بالتعليم العالي الصحيح، ومن العبث أنْ نحاول أنْ يكون لخادمنا من المعرفة ما للخادم الغربي، ما لم نسع أنْ تتساوى معلومات أغنيائنا بمعلومات أمثالهم من الغربيين، فإن هذا الخطل في الرأي قد يؤدي لأن يكون الخادم أعلم من سيده، وهو ما لم يُر في أمة من الأمم، إننا في حاجة إلى تعليم أبناء الأثرياء من أهل القرى تعليمًا عاليًا يليق بثروتهم؛ لأنهم سيكونون في المستقبل نواب الأمَّة؛ أي أعضاء لمجالس المديريات والجمعيات التشريعية، نحن في حاجة إلى ذلك أشد من احتياجنا إلى تعليم خَدَمِنا مبادئ القراءة، فمن هؤلاء النواب يكون رقي الأمة، وانتشار التعليم في المستقبل، وإرشاد السوقة إلى حسن المآل.

إننا لو سعينا في فتح المدارس العالية، لا يُكلفنا ذلك أكثر من إعداد بنائها وأثاثها، ومساعدتها ماليًّا عامًا أو عامين، ومتى قام بإدراتها رجال أكفاء أقبل أغنياء الأمة عليها، وجمعت من مصروفات الطلبة ما يقوم بنفقتها وزيادة، فلم نترك ذلك ونهتم بفتح ما يسمونه الآن بالملاجئ؟ ونحن لو فكرنا لعرفنا أنه يستحيل إبراز مثل هذا المشروع على الوجود، فلو فُرض وفُتح ملجأ بجمع الإعانات لأغلق بعد عام أو عامين؛ لأن الملجأ الذي يعيش فيه ٣٠٠ طفل لا يُنفَق عليه في العام أقل من عشرة آلاف جنيه، ولقد اشتغل المصريون سنة ١٩١٩م في جمع الإعانات لمثل هذه الملاجئ، فلم يجمعوا ما يصرف على ملجأٍ واحدٍ في عامٍ واحد، فلِمَ يتشبثون بالمستحيل، فيشغلهم ذلك عن الأعمال المفيدة التي كانوا يستطيعونها لو التفتوا إليها؟

إنَّ بلدنا الخصب ليس في حاجة إلى ملاجئ الغلمان التي يقصد بها في أوروبا إنقاذهم من الموت جوعًا، فإن كل رجل متوسط الحال في مصر يود لو أنه أبقى أحد هؤلاء المتشردين في منزله لقضاء حاجاته … فيأكل ويلبس، ويأخذ أجرًا على ذلك، ولكن

هؤلاء الغلمان المتشردين يُفضلون التجول في الشوارع على البقاء في المنازل، وربما وجدوه أربح، وذلك لسخاء المصريين الفطري، ولقد قلت لغلام أراد الاستجداء مني مرة إني مستعدة لآخذه عندي، فيأكل ويلبس، ويأخذ أجرًا على ذلك، فرفض قائلًا إنَّ والده لا يرضى بذلك! … فبأي سلطة يستطيع الملجأ أخذ هذا الغلام من والده؟ ولمَ نقلد الغربيين فيما لا حاجة لنا به، ونتعرض لما لا يكون؟ ونحن لو أنصفنا لالتفتنا إلى التعليم العالي الرَّاقي؛ لينهض بالأمة إلى غايتها شأن كل الأمم الرَّاقية.

ولقد قلَّد النساء الرِّجال في تلك الفكرة، فما اجتمعت منهن جمعية إلَّا إذا كان غرضها إنشاء مدرسة للفقيرات … كأنهن قد سرَّهن كثرة مدارس البنات اللائقة لتعليم الغنيات منا، فلم يعد يعوزنا إلَّا شيء واحد، وهو تعليم الفقيرات والخادمات، مع أنَّ جميع المدارس الموجودة في مصر الآن ليس منها ما يصلح لتعليم بنات الأغنياء من المصريين، وكلها لا تخرج عن ثلاثة الأنواع الآتية:

أولًا: «مدارس أميرية» وهي كغيرها من مدارس الحكومات الأخرى، لا يصح أنْ يُعتمد عليها في التعليم الرَّاقي الصحيح، وقد شوهد في جميع البلاد الرَّاقية أنَّ التعليم العالي يقوم به الأهالي أنفسهم، وأنَّ مدارس الحكومة إنما جعلت للفقراء.

ثانيًا: «مدارس أهلية» وهي إمَّا مكاتب لا تعليم فيها بالمرة ولا آداب؛ لجهل القائمين بها بمهنة التعليم، فكل من ضاقت به الحال ولم يجد مرتزقًا آخر، قام بفتح مدرسة على شدَّة جهله بنظام التعليم، بل وبنفس العلوم التي تُدرس في المدارس، ومدارس هذا شأنها لا يُعقل أنْ تعلم غير سوء الآداب وفساد الصحة، وإمَّا مدارس أرقى من هذه قامت بها جمعيات خيرية، فقلَّدت الحكومة في مناهجها، وفي إسناد رئاستها إلى الأجنبيَّات، فهي كمدارس الحكومة، بل أشد انحطاطًا منها؛ لانصراف أذكياء المصريين عن التوظف في مثل هذه الجمعيات؛ نظرًا لأن مراكز الحكومة أثبت وأضمن للتوظف، فلا يتوظَّف خارج الحكومة إلَّا من نبذته الحكومة من نفسها، وربما لا يكون في مثل هذا خير للمدارس الأهلية، ولو جرؤ أذكياء الموظفين منا على ترك الحكومة والعمل خارجها لانتفع بهم البلد، ولو كان في ذلك تضحية بمصالحهم الشخصية.

ثالثًا: «مدارس أجنبية» كمدراس الراهبات ومدارس الأمريكان، وليس فيها عناية ما بتعليم لغة البلاد وآدابها القومية ولا بديانتها، وليس من بين الأمم الرَّاقية أمَّة واحدة، تقبل أنْ تُعَلِّم بناتها اللغات الأجنبية دون أنْ يُتقنَّ لغتهن، وتعليم مثل هذا شأنه أنْ يجعل الفتيات بعيدات عن الشعور الوطني الحقيقي، فإن معرفتهن اللغات الأجنبية

مع جهلهن بلغة البلاد قد يؤدي بهن إلى استحسان كل عادة أوروبية واتباعها، حسنةً كانت أو قبيحة، فيُصبحن بذلك أشد ميلًا إلى الأجنبيات منهن إلى الوطنيات، وهو خلاف ما تتطلَّبه الوطنية الصادقة، هذا فضلًا من أنَّ نجاح هذه المدارس بيننا يدل دلالة صريحة على جهلنا وقيام غيرنا بأمر التعليم فينا، حتى في تهذيب البنات … تلك المسألة التي يجب أنْ تقوم بها يد وطنية؛ لتحافظ على الشرف والآداب القومية المحمودة، وهي وصمة عار يجب علينا أنْ نمحوها ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا.

إنَّ مدارس الرَّاهبات جزء من الدير، ولم تكن الأديرة كليات لتعليم مهنة التعليم، تلك المهنة السامية … فكيف ننتظر من الأديرة أنْ تُخرج لنا مُعلِّمات ماهرات؟ إنَّ الأديرة تقبل من أَمَّها بلا شرط ولا قيد أو امتحان، فكيف تقوم كل من دخلتها بمهنة التعليم؟ وقد تكون جاهلة بها، فحالة مدارس الرَّاهبات كحالة مدارسنا الأهلية، يقوم بالتعليم فيها أناس لا كفاءة لهم ولا دراية بمهنة التعليم الحقيقية، وكل هَم الرَّاهبات مُنصرف إلى تعليم الدين المسيحي، فتعليم العلوم الأخرى منحط فيها لدرجة بعيدة، فكثيرًا ما تتعلَّم التلميذات الحساب — مثلًا — بطريقة ميكانيكية لا يفهمن منها شيئًا، ولقد سألت مرة إحدى التلميذات أنْ تُجري أمامي بعض عمليات الكسور العشرية، فقالت إنها لا تعرفها باللغة العربية، ولما شرحَت ذلك علمت منها أنها لا تعرف إجراء تلك العمليات، وإنما تنقلها من على لوح الطباشير وتقلدها في كراستها، حتى إذا طال العهد بها نسيتها، ولم تعرف مضمونها … وقِسْ على ذلك باقي العلوم، فترى الفتاة تذكر لك مقاطعات فرنسا، وربما كانت لا تعرف موقع مصر ولا غيرها من البلاد الأخرى، فتجهل بلدها الجميل وهواءه العليل، وكل ما يحيط بذلك النيل العذب الزُّلال، وتعلم ما لا يهم مصر من منابع نهر «الرَّاين» و«السِّين» مع بعدهما وقلَّة أهميتهما، وتعرف تاريخ نابليون وجان دارك وهي تجهل تاريخ العرب، بل وتاريخ مصر وطنها المحبوب، تعرف التطريز ولا تعرف أنْ تُفصِّل أو تخيط أبسط ملابسها!

فتعليم مثل هذا وَهْمٌ لا فائدة فيه لترقية مدراك المصريات ألبتَّة؛ لأن التعليم لا يكون نافعًا مفيدًا إلا إذا ابتدأ الطفل يتعلم ما يشاهده ويحيط به، ثم انتقل منه لما يليه مباشرة، وبذلك يستطيع استعمال عقله فيما يتعلم ليفهمه فهمًا جيدًا يُرقِّي مداركه ويُعوِّده التصور، فمن الجهل الفاحش أنْ تبتدئ المصريات بتعلُّم ما يختص بفرنسا مع بعدها عنهن، ومثل هذا التعليم يُسمَّى تلقينًا لا فائدة منه لتنمية المدارك والعقول، فتلك المدارس تُطفئ من نفوس المصريات جَذوة الذكاء والوطنية الصادقة … قد يقال إنَّ

الفتاة تتعلم هناك حُسن التخاطب باللغة الفرنسية … وهو حقيقي، إلا أنه لا يدل على مهارة الرَّاهبات في التعليم، بل إنَّ تعليم اللغات يكون دائمًا بالتقليد، فالبنت تقلد المعلمة في كلامها، ولو أحضرنا في منازلنا خادمة فرنسية لقامت بهذا العمل في تعليم بناتنا التكلم بلغتها، ونحن في تلك الحالة نضمن أنها لا تستطيع تغيير شيء من معتقداتهن أو عاداتهن؛ لأنها تحت سلطتنا، أما مُعلِّمة الدَّير — التي ربما لا تفوق هذه في العلم والمعرفة — فهي حرَّة في تصرفاتها، حيث يقضي قانون المدرسة بطاعة بناتنا لها وانقيادهن لأوامرها، فتأثيرها في نفوسهن شديد لا نضمن مغبته؛ إذ ربما جردتهن من عواطف الوطنية الصادقة، وأصبحت الفتاة منهنَّ تحتقر مصر وأهلها، وتذم تصرفاتهم، جاهلة أنَّ هذا الذمَّ واقعٌ عليها ضمنًا، خصوصًا وهي تجهل اللغة العربية وجمال أسلوبها ومفاخر أهلها المدوَّنة بها، وجميع الأمم الرَّاقية لا تُعلِّم أبناءها في أول نشأتهم إلا لغتهم ومفاخر أهلها؛ ليصادف حب وطنهم قلبًا خاليًا فيتمكن منه، فإذا اقتدينا بهم في ذلك كان أول ما نعلمه بناتنا لغتهن وفخرها وحُسن عادتهن الممدوحة، فالمصرية في نظري أطهر النساء وأعفُّهن وأشدُّهن ذكاءً ونشاطًا إذا مُهِّد لها طريق الرُّقي العلمي والعملي.

أمَّا مدارس الأمريكان فهي تكاد تكون كهذه المدارس من إهمال المبادئ الوطنية ولغة البلاد، وهي أيضًا بعثات دينية يُراد بها انتشار التعاليم الدينية، وعصرنا الآن عصر علم وعرفان، يجب ألَّا يُناقَش فيه في الأمور الدينية، بل يحسُن بكل أناس اتباع دينهم دون معارضة فيه، أو مقارنة بينه وبين الأديان الأخرى؛ فإنَّ الدين لله، وليس لنا أنْ نتدخل في اعتقاد غيرنا، ويكفينا أنْ ننتقد أعمال الناس الظاهرية حسنةً كانت أو رديئة.

إنَّ انتشار هذه المدارس بيننا قد بغَّضنا في عاداتنا؛ فأصبحت كل منا تذمُّ المصريات كأنها ليست منهن، وسرت هذه الرُّوح من الأم إلى أبنائها، ففضَّل الرجال الآن الزواج بالأجنبيات هربًا من صفات المصريات، ولو فكَّر الرِّجال لوجدوا أنَّ المصرية أطهر وأعف وأطوع للزوج وأكثر انقيادًا له من غيرها، فهل يليق بالمصريات السكوت على ذلك النوم بعد أنْ استيقظت جميع طبقات الأمة؟

هذه حال مدارس البنات لدينا، ونحن مع ذلك لاهيات، وإذا اجتمعنا قرَّرنا فتح مدرسة للخادمات، كأننا قد وصلنا إلى غايتنا المنشودة في تعليم الطبقتين العليا والمتوسطة، ولم يبق إلا غاية واحدة وهي تعليم طبقة الخادمات!

ولعمري، كيف نطلب تعليم الخادمة، ونترك أمر سيدتها، وهي أولى منها بالعناية؟ لست أنكر أنَّ في تعليم الخادمات بعض الراحة لسيدتهن، ولكن هذا أمر لا يصلح الالتفات إليه إلا إذا انتهينا مما هو أهم منه من تعليم السيدات.

قد تقول بعض المصريات إنهن يستطعن تعليم بناتهن في المنازل، وهو في الحقيقة ما لا يكون، فإن المنزل لا يكون مدرسة مهما أُنفق عليه، فكيف يكون كلية راقية؟ ولو كان هذا مستطاعًا لكان أولى به أولاد الملوك، فهم مع عظم جاههم واتساع ثرواتهم يُرسَلون إلى الكليات الرَّاقية، بل قد يهاجرون من بلادهم للالتحاق بكلية في البلاد الأخرى ... فمن العبث أنْ نحاول ما لا يكون.

إننا بتعليم الفتاة الغنية نرفع شأن أسرة بأكملها؛ لأنها ستكون رئيسة لها، فتؤثر في نفوس الأبناء، بل وفي نفس رب الأسرة تأثيرًا قد يدفع إلى الخير والنجاح، وهي أيضًا تصلح أحوال الخدم، وترشدهم إلى النجاح في أعمالهم، ولا شك أننا بتعليم هؤلاء السيدات قد نصل إلى تعليم السوقة، فالدَّهر بطبعه مُتقلِّب سرعان ما ينتقل بالغني إلى الفقر وبالفقير إلى الغنى، فتشتغل من احتاجت من هؤلاء بنشر التعليم في الأمة لاتساع وكثرة معلوماتها ووفرة معارفها، فتعليمنا لهن رقي للأمة بأسرها ... أمَّا تعليم الخادمة فلا يكاد ينفع غيرها، خصوصًا وهو تعليم أوَّلي محض، فهي لا تستطيع معه الاشتغال بتعليم غيرها ورفع شأن أسرتها، وكل ما نستفيده من ذلك هو بعض الرَّاحة للسيدات؛ لتستطيع السيدة تكليف خادمتها إحضار الكتاب الفلاني من موضعه، وما ضرنا لو تركت السيدة الكسل، وأحضرت الكتاب بنفسها، ثم لاحظت خادماتها بدقة ومهارة، فقمن بأعمالهن أحسن قيام على ما بهن من الجهل، فإنها لهن بمثابة الرأس من البدن، فعليها أنْ تنظم وعليهن الحركة والعمل.

إننا نحتاج إلى مُعلِّمات ومديرات للمدارس، ويقوم بذلك فينا الأجنبيات الآن، فإن كنا نحب لأمتنا الخير فهل نعد بناتها للخدمة، ونترك المراكز الأخرى للأجنبيات؟ أم نحتفظ أولًا بالمراكز السامية التي تستطيع صاحبتها كسب المال الكثير ونترك الخدمة للأجنبيات على أن نستعد بعد ذلك لأخذها منهن؟

فتحت الحكومة مدرسة التدبير المنزلي بالقبة على فكرة تخريج الخادمات، ولما لم يكن لدينا المعلمات الكافيات فقد قامت خريجاتها بالتعليم، فهل يُعد ذلك نجاحًا في التربية؟ على أنَّ ربة الأسرة متى كانت متعلمة نشيطة استطاعت أنْ تُرشد الخادمات إلى حسن القيام بأعمالهن مهما كنَّ جاهلات، فنحن نستطيع — متى تعلمت فتياتنا التعليم الصحيح — أنْ نستغني عن الأجنبيات بالمرَّة.

لهذا أرى أنَّ أهم ما نحتاج إليه الآن هو فتح كلية وطنية راقية تقوم بترقية الفتاة المصرية أدبيًّا وعلميًّا، فتُدرس فيها العلوم الأساسية كاللغة العربية والحساب، وعلم

تدبير الصحة، والتدبير المنزلي، وإحدى اللغات الأجنبية، والرَّسم والنقش وتقويم البلدان والخياطة، وتكون سنون الدراسة بهذا القسم ستًّا، متى أتَمَّتها الفتاة جاز لها أنْ تدخل في قسم أرقى، يُخصص لتعليمها مهنة التعليم ومُدَّته أربع سنوات.

ويُخصص في الكلية فرع لتعليم فَنِّ الموسيقى «البيانو» تعليمًا نهائيًّا، تتخرج فيه معلمات مصريات لهذا الفن، وفرع آخر لتعليم الخياطة تعليمًا علميًّا محضًا، فتتخرج فيه مُعلمات للخياطة، وخياطات مصريات، وتُعين فيه خيَّاطة ماهرة في صناعتها، يقوم بمساعدتها بعض أرامل المصريات اللائي يُبرهنَّ على كمال الأخلاق والسلوك، وبذلك نكون قد أعنَّا الأرامل لا من طرق الصدقة عليهن وتعليمهن الاستجداء تلك العادة الممقوتة التي يجب محوها من كل أمة راقية، بل بتعليمهن الأعمال النافعة التي يمكنهن بها اكتساب القوت بطريقة شريفة، ويقوم هذا الفرع بخياطة الملابس للسيدات بأجور متهاودة، فتتعلم تلميذاته الخياطة بطريقة عملية مفيدة، ويقبل في هذين الفرعين اليتيمات من الأسر الشريفة مجانًا.

ويقوم القسم الأول من الكلية بما يُجمع من مصروفات الغنيات بالنفقة على يتيمات هذين الفرعين.

ولو تكونت جمعية لهذا الغرض، وقامت بإدارة الكلية مديرة تليق بهذا لما كَلَّف الجمعية ذلك إلا إعداد المنزل والأثاث وحث الأغنياء على الإقبال عليها بإرسال بناتهم إليها، ثم يُنسج على منوالها — إذا نجحت — كليات أخرى في أنحاء القطر.

احتياج مصر إلى طبيبات ومعلمات وخياطات وغيرهن

إنَّ الأمة لا تنجح إلا إذا كانت نشيطة عاملة، ولا تكون نشيطة ما دام نصفها أشل لا حياة فيه، فهو بمعزل عن أعمال الدنيا، فإن لم نعمل — نحن النساء — كان نصف الأمة المصرية مُهملًا لا ذكر له، مع أننا في أشد الحاجة إلى العمل، ولا سبيل إلى أنْ نعمل ونحفظ الثروة المصرية للأمة المصرية، إلا إذا تربينا وتعلمنا مختلف العلوم والصنائع اللائقة بنا، فعلى من تريد إصلاح الأمة أنْ تسعى في ذلك بالاشتراك في إنشاء المدارس المختلفة للنساء.

يسوءني أنْ أرى أنَّ موارد العلم الحقيقية لا تزال عسرة الورود على النساء، وأنَّ الصنائع الحية النافعة محجورة عليهن إلى الآن، نعم … يسوءني أنْ أرى المصرية وراء النساء علمًا وصناعة، وهي في مقدمتهن ذكاءً واستعدادًا، فإلى متى تبخل الغنية ببذل المال في تعليم النساء، في الوقت الذي تسخو به في سبيل الزينة والحضارة الفاسدة؟!

حتى إذا جادت بشيء للتعليم كان ذلك لتعليم البنين، فنسمع من يوم لآخر أنَّ السيدة فلانة قد تبرعت بمبلغ كذا للأزهر وغيره من معاهد العلم الخاصة بالرِّجال، كما تبرعت أمينة هانم كريمة سليم باشا السلحدار بوقف جميع أطيانها على الأزهر والجمعية الخيرية الإسلامية، ولم توقف شيئًا من هذا — على كثرته — لتعليم ذلك الجنس الضعيف.

قام الأغنياء الرِّجال بنشر التعليم بين أولاد الأمة، فأدوا بذلك واجبهم نحو وطنهم المحبوب، ونامت الغنيات منا عن فعل الخير، حتى إذا استيقظت إحداهن من هذا السُّبات قلدت الرِّجال ذلك التقليد الأعمى، فساعدت على نشر التعليم للبنين لا للبنات، وكان

من العدل والحكمة أنْ تهتم السيدات بتعليم البنات كما اهتم الرِّجال بتعليم البنين، لا أنْ يلتفت الجنسان إلى تعليم جنس واحد، ويهملا شأن الثاني، وفي رقيِّه نجاح الأمة المهضومة لو يعلمون.

أهملنا تربية المصريات وتعليمهن، فظللن قاصرات الإدراك، عاجزات عن إتقان أعمالهن، ثم احتقرناهن لذلك النقص، وأغلقنا في وجوهنَّ أبواب الطلب، ورحبنا بالأجنبيات في منازلنا، ووثقنا بهن في جميع أعمالنا كالخياطة والتعليم وغيرها، فما منا إلا من تفخر أنَّ رئيسة خدمها ألمانية وخائطتها فرنسية ومعلمة ابنتها كذلك أوروبية، ومُربية أطفالها سويسرية، فلا بدع أن انتقلت ثروة مصر إلى هؤلاء اللاتي ننسب إليهن الكمال وإلى فتياتنا العجز والنقص، ولو بذلنا المال في تعليم المصريات لقمن بكل هذه الأعمال أحسن قيام، ولم تخرج الثروة المصرية من أيدي أهلها.

قاسينا أشد الآلام للحصول على استقلالنا الإداري مع وعورة السبيل إليه، فما بالنا نسكت عن استقلالنا الاقتصادي وهو سهل ميسور؟!

تحتاج مصر إلى طبيبات بارعات، وهنَّ أولى بمعالجة السيدات من الرِّجال؛ لما في ذلك من مراعاة الآداب، فإن الطبيبة أرأف بالسيدات من الرِّجال، وأخف على نفوسهن، هذا فضلًا عن أنَّ السيدة التي تُصاب بداء داخلي يضطرها إلى استحضار الطبيب قد تكابد من الخجل عند حضوره أشد مما تكابده من ذلك الدَّاء، وقد يؤثر هذا الخجل في أعصابها فيورثها داء آخر.

إذا قيل إنَّ العادات الشرقية لا تسمح للفتاة بالدراسة مع الأطباء، ولا يبيح لها الدين الإسلامي الاختلاط بهم، قلت إنَّ الحالة الحاضرة تضطر جميع النساء إلى الاختلاط بالأطباء، وقد أباح الدين وأجازته العادات، وإنه أفضل للبلاد أنْ تنجب من متعلماتها النابغات العاقلات فئة تخالط الأطباء؛ لتختص بعد ذلك بمعالجة النساء من أنْ تُترك جميع النساء عرضة للاختلاط بالأطباء لمعالجة أدوائهن، ولقد سمحت العادات الشرقية منذ زمن للفتاة المصرية أنْ تكون مُمرِّضة أو قابلة فتخالط الأطباء، وليتها تخالطهم مخالطة النظير لنظيره، فتحفظ كرامتها وعفتها إنْ شاءت، وتكون مهيبة في أنظارهم، فلا يطمعون في قيادتها، ولكنها تخالطهم بصفة مرءوسة لهم خاضعة لسلطتهم، فهي تسعى بالطبع في استمالتهم إليها، وربما جارتهم في أهوائهم طلبًا لرضاهم، وفي هذا خطر على طهارة نفسها إنْ لم تكن شديدة الحرص.

رضي الرِّجال للفتاة أنْ تكون مرءوسة خاضعة للأطباء، فتخالطهم ويتحكمون فيها ما شاءوا، وإن طلبنا أنْ تكون الفتاة طبيبة تخالط ولكن بصفة نظير أو رئيس

ليس لهم على نفسها من سلطان، قالوا إننا خرجنا عن العادات والدين! فأي دين قضى بذُلِّ النساء وامتهانهن وديننا دين عدل ومساواة؟ إنَّ تعليم البنات متأخر في مصر، فلم لا تقوم الغنيات منا بسد هذا الخلل وفتح المدارس الثانوية للبنات، حتى إذا توافر لدينا العدد الكافي من الحاملات لتلك الشهادة طالبنا الحكومة أنْ تفتح مدرسة الطب لفتياتنا كما فعلت ذلك الإنجليزيات.

نحن في حاجة شديدة إلى خيَّاطات مِصريات؛ لعلَّنا نتلاقى ما قد فات، فقد سلبت الخياطات الأجنبيات نصف أموالنا، ولو سعينا جميعًا في تعليم بنات الوطن هذه الحرفة الجميلة لأمكن أنْ يقلَّ أجر الخياطة علينا، ويتحول ذلك المال الذي ينصب في الجيوب الأجنبية إلى جيوب وطنية، وهي أعظم خدمة تقوم بها من أرادت نفع البلاد، فتتألف جمعية من السيدات؛ لفتح مدرسة خاصة لذلك الفن وغيره من الفنون الجميلة كالبيانو والعود ونحوهما لاحتياجنا إلى من يدرس هذه الفنون ويتقنها.

إنَّ بناتنا في حاجة إلى مُعلِّمات ماهرات، يُعلِّمن اللغات الأجنبية والبيانو بدلًا من المعلمات الأجنبيات، فلم لا نسعى في تعليم فتياتنا ذلك، ونقوم بالواجب علينا، فيقل أجر التعليم ويتوفر المال في الجيوب المصرية؟ وفضلًا عن ذلك، فإن الأطفال يكسبون من مُعلماتهم طباعًا لا يُستهان بها كحب الوطن والغيرة على منعته، ولا يكون هذا في الأجنبيات، ولا يَخفَى أنَّ لكلِّ أمة عادات حسنة وأخرى مستهجنة، فإذا سلمنا بناتنا إلى الأجنبيات تَعلَّمنَ منهنَّ العادات الأجنبية على علَّاتها ... ممدوحة كانت أو مرذولة، على أننا لو ربينا المصريات وعلمناهن لعرفن الفرق بين عاداتنا والعادات الأخرى، واتبعن الحسن من هذه وتلك، تاركات ما لا يليق بنا منها، وتسري هذه الأخلاق منهن إلى المتعلمات.

تضطر كثير من السيدات إلى رفع الدعاوى المدنية في بعض الظروف، فلم لا يكون بيننا محاميات يركن إليهن هؤلاء السيدات؟

على أنَّ اختلاط المحامية برجال القضاء مع غزارة مادتها وبُعد نظرها أفضل من اختلاط هؤلاء السيدات بالمحامين؛ لأن الأولى تربَّت تربية راقية، تجعلها مع الرِّجال في مستوًى واحدٍ، فلا يسهل عليهم إيقاعها في شراكهم، ولا يطمعون في جانبها، وأما السيدات الأخريات فهن أقل من الرِّجال علمًا، والقوي قد يتغلب على الضعيف، فتقع هؤلاء السيدات في حبائل كيد الرِّجال، ويخسرن كل عين نفيس.

هذا ولا يخفى أنَّ الفتاة تعرف ما يجول في صدر السيدات، وتشعر شعورهن، فهي أقرب للدفاع عنهن وتمثيل أفكارهن من الرِّجال؛ لبعدهم عنهن في المشارب والوسط،

كذلك أرى أنَّ مثل هؤلاء السيدات قد يحتجن إلى كَتبة، وأفضل أنْ تكون السيدة كاتبة لا كاتب، كل هذا يضطرنا إلى تعليم الفتيات تعليمًا صحيحًا يؤهلهن لمثل هذه الأعمال ... ولعل قائلًا يقول: مالنا ولكل هذه الأعمال وعادتنا الشرقية لا تسمح للفتاة بالعمل؟ فأقول إنَّ هذه الأفكار — فضلًا عن فسادها وتقادم عهدها — قد كذبتها الطبيعة وظواهر الأحوال في الشرق نفسه، واضطرت الحال النساء إلى العمل على جهلهن، فركنَّ إلى الأعمال الدنيئة الشاقة، فكان منهن بائعات، يجلسن على قارعة الطريق، تتناولهن أنظار المارة على اختلافهم وكثرتهم، مع أنهن في مقامهن ما يدعو إلى احترامهن، ولكنهن بحكم الحاجة خاضعات لأهواء سفهاء الرِّجال، ولا يخفى ما في ذلك من خرق حجاب الصيانة والأدب.

ومنهن دلَّالات تتقاذفهن حوانيت الباعة من هذا لذاك، وتلفظهن المنازل من منزل لآخر، فيعاملن الرِّجال على اختلافهم وتشعب أهوائهم.

ومنهن خادمات تتداولهن الرِّجال، وقد تضطرهن الحال إلى الخضوع لأطماعهم ... والفاقة أم الجرائم، وعملهن شاق متعب، قد يضطرُّهن لشدته إلى تركه والانصراف إلى ما هو أسهل منه من أسباب الفجور.

كل هذه الحِرَف الشاقة الدنيئة مُباحة لنساء مصر الآن، وهي لا ضمان فيها على الشرف والآداب، خصوصًا إذا أضفنا إلى ذلك جهل النساء وخضوعهن ذلك الخضوع الأعمى لسلطة الرِّجال الأجانب، فكيف نُحرِّم عليهن العمل بما هو أرقى وأشرف؟ وقد سمحت العادات الشرقية بذلك، وأجازه الدين لاحتياج الفتاة إليه، ولقد جاء في الشريعة أنَّ الخادمة يجوز لها كشف ذراعيها أمام سيدها لاضطرارها إلى ذلك أثناء العمل، ممَّا يدل على أنَّ الشرع لم يحرم على المرأة العمل حتى بما يخل بحجابها، فمن المحال أنْ يمنعها عن غيره من الأعمال الشريفة، على أنَّ قيام الفتاة بتلك الأعمال الشريفة أضمن لصيانة نفسها، خصوصًا وهي متعلمة تعرف قيمة الشرف، فلا شك أنْ تترفع عن الرذائل.

إنَّ وقوف المحامية أمام السلطة القضائية ذلك الموقف المهيب أطهر من وقوف البائعة أمام فئة ساقطة من سفلة الناس، ودخول الطبيبة في دروس الطب مع الرِّجال أشرف من دخول الدلَّالة الجاهلة حوانيت البيع والشراء؛ لأن الأولى يحترمها الرِّجال، ويخشون أنْ يسقطوا أمامها لما لها من المكانة العلمية، أما الثانية فهي مهينة يطمع في جانبها سفهاء الرِّجال، وربما احتالوا في الإيقاع بها.

من الجهل أنْ يقال إنَّ الدين يحجر علينا تعاطي الأعمال الشريفة، فيدفعنا ذلك إلى تلك الأعمال الدنيئة، وديننا دين تسامح وكمال ما جُعِل إلا لنفع البشر، ولقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، ولكن هو الجهل القديم قد أعمى البصائر وأصمَّ الآذان، وأرانا لا نزال عاكفين عليه متمسكين بأوهامه، نعارض كل إصلاح جديد.

اشترك نساء أوروبا مع الرِّجال في مثل هذه الأعمال السامية، وكانت نتيجة هذا الاشتراك إصلاح الأمم، فترى السيدة عالمة بالفن الذي يشتغل به زوجها، فهي تقوم بإصلاح منزلها مدة غيابه عنه، حتى إذا عاد من عمله جلست معه يتفاوضان فيما يجب في إصلاح شأنه، وربما أشارت عليه بما فيه الخير والنجاح، ولا شك أنَّ رجلًا يعمل برأيين أفضل من ذلك الرَّجل الذي يعمل بمجرد رأيه لجهل امرأته بأعماله.

نعم، قد يستشير في ذلك بعض أصدقائه، إلا أنَّ الأصدقاء لا يهمهم أمر الصديق كما يهم امرأته ذلك، فهم إنْ أشاروا عليه أبدوا له أول فكرة تخطر على بالهم دون أنْ يتفرَّغوا لفحصها من جميع الوجوه، ففي قيامنا بهذه الأعمال خيرٌ للرِّجال أنفسهم، ولكنهم يُعارضون في ذلك أول الأمر كما كان ذلك — ولا يزال بعضه — في أوروبا، فقد رشحت مدام كوري نفسها للانتخاب في عضوية الأكاديمية، وهي تلك العالمة المشهورة في اكتشافات الراديوم، وكادت تنجح لولا أنْ قصد إسقاطها الرِّجال خوفًا على مراكزهم من أنْ تأخذها النساء منهم، فغضبت النساء لذلك، وعوَّلن على إنشاء أكاديمية خاصة بهن.

كل ذلك تفعله نساء أوروبا، ونحن جامدات لا نتحرك، فلا تبذل الفقيرة أو المتوسطة مِنَّا جهدًا من أجل نَيل العلم، ولا تجود الغنية بما يسهِّل للفقيرات ذلك، وما دمنا كذلك فأنَّى لنا النجاح؟ وإنما النجاح بالأعمال، ولا فوز لنا إلا إذا أخذنا في طلب العلم وتسهيله لجميع الطبقات المصرية، كلُّنا مصريات ... وإن اختلفت المنابع فمن تُنسب منا إلى تركيا أو إلى العرب أو إلى العجم، فقد أصبحت الآن مصرية بالمولد والإقامة والاشتراك في المنفعة، وأصبح من الواجب علينا جميعًا رفع شأن مصر.

لم ينحط شأننا؛ لأننا علَّمنا أولادنا «البعبع» كما يقال، فإن أوروبا تعد للأطفال كتبًا خاصة بحكايات وهمية على الجن والسحرة، وفيها ما هو أشد من «البعبع» غرابة، ومع ذلك لم ينحط شأنهم، ولكننا تأخرنا لنومنا عن الأعمال والعلم وقيام الأجنبيات بجميع الأعمال ومحاربتهن الوطنية الصادقة في نفوس الصغيرات.

قلَّت ثقة بعضنا ببعض، فنحن نعتقد في كل مصرية النقص، فلا نثق بها، وننسب إليها الكذب والغش والعجز عن القيام بالأعمال النافعة قيامًا يُرضينا، وقد يكون كل

ذلك في بعض المصريات، ولكن هل منشؤه أنَّ الله — سبحانه وتعالى — قد خلقهن غير خلقة البشر؟ أم هن كغيرهن من النساء، ولكن أُهملت تربيتهن وتعليمهن وأصبحن عاجزات؟ نعم … نشأ كل ذلك من إهمال التربية والتعليم، فلِمَ لا نسعى في إزالته؟! نرى الإنجليزية تتكلَّم عن نزاهة الإنجليزيات وقدرتهن بعبارة حماسية تكاد تجعل السامع يظن أنَّ إنجلترا ليس به مجرم ولا كسلان، حتى إذا نظر بعين الحقيقة وجد نفسه مخطئًا؛ لأنه لو كان الأمر كذلك لاستغنت إنجلترا عن القضاة والنيابة والبوليس ووفَّرت ما تصرفه من الأموال العظيمة.

يعجبني من الإنجليزية ذلك؛ لأنه يجعلها تثق بأبناء جنسها، كما قد يثق بهم سامعها والثقة أساس النجاح في جميع الأعمال، أمَّا نحن فإذا تكلمنا عن المصريات نسبنا إليهن من العيوب ما قد يكون وهمًا لا حقيقة له، حتى يتصور السامع أنَّ مصر يجب أنْ تكون كلُّها سجونًا لتسع كل هذا العدد من المجرمين والمجرمات، فنحن نختلق للمصري كل عيب، وننسى كرمه وإباءه، ننسى صدقه المُكتسب من العرب، ولا نذكر للمصري إلا الجهل والكسل، ولا ذنب للمصري والمصرية في ذلك، وإنما الذنب على من أهمل شأنهما، وأعدهما للفراغ والظروف التي ساعدت على ذلك.

تفتخر إحدانا بكل شيء أوروبي نالته، ولا أدري لم تحتقر كل شيء مصري وهو أقرب إليها من غيره؟ فكأننا بهذا نحتقر أنفسنا، ولا تسود أمة لا تعرف حق نفسها.

إنَّ تضامن أفراد الأمة وثقة بعضهم ببعض لمن أهم أسباب نجاحها، فلا يذهب بنا حب الذات كل مذهب، فلا يفكر كل منا إلا في نفسه فقط، بل يجتهد كل فرد منا في إصلاح الأمة ببث التعليم على قدر استطاعته، ولقد قضى الرِّجال واجبهم نحو الأمة في ذلك، ولم يتقاعد عن البذل في نشر التعليم إلا نحن معاشر النساء، على أننا نصرف المال فيما لا يُفيد، بل نسرف فيه إلى حد ممقوت، ولو اقتصدت غنيَّاتنا لتوفَّر لديهن ما يُشيِّد كليات لا مدارس.

على أنه يسرني أنْ أقول إنَّ كثيرًا من سيدات مصر الآن أجلُّ وأرقى من أنْ أنصح لهن؛ فقد رأيت منهن من لا يوجد نظيرها في أوروبا، فهي تميل إلى البساطة والاقتصاد، وتباشر جميع أعمال المنزل، حتى إنها تباشر خياطة ملابسها وملابس أطفالها وتلبسهن من الملابس ما ارتفعت قيمته وقل ثمنه، فلو تكونت جمعية من مثل هؤلاء السيدات لقمن بما نريده من نشر التعليم.

التدبير المنزلي والتطريز

علم الناس الآن ضرورة التعليم للبنات، إلا أنهم لا يزالون يعتقدون أنَّ تربية عقل البنت غير تربية عقل الولد، فكل من أراد أنْ يفتح مدرسة للبنات، وود رواجها أخذ يضع لها منهجًا جديدًا تُجتَذب به الأهالي، ويسير بالطبع مع تيارهم، فيجعل أول واجباته في وضع ذلك المنهج التدبير المنزلي والتطريز، وما من مُفكر يفكر ما هما هذان العلمان، ولا مقدار فائدة كل منهما، ولا متى وكيف يدرسان ... إنَّ الطفل — سواء كان بنتًا أو ولدًا — يجب أنْ يُربَّى تربية مفيدة تُعدُّه لمعارك الحياة، فيعيش عيشة سعيدة، وكل لحظة من حياة الطفل يجب أنْ تُصرف في شيء مفيد له، لا في أشياء وهمية لا حقيقة لها ولا احتياج إليها، فكل ما يتعلَّمه يجب أنْ يُقصد به إمَّا تنمية العقل والإدراك أو تهذيب الأخلاق أو إعداده للكسب عند دخوله معارك الحياة مهما كان الأب غنيًّا، فلسنا نعلم ما وراء الغيب ولا ما يفعله الزمان بالطفل بتقلباته، وما الدَّهر إلا ارتفاع وانخفاض، ومن الجهل أنْ يُسلَّم الطفل لرحمة القضاء والقدر، فيدخل حرب الحياة أعزل، سواء في ذلك أكان بنتًا أم صبيًّا، فإننا لا نضمن لكل بنت الزواج، ثم الرَّاحة مع الزَّوج بعد ذلك، كما لا يمكننا أنْ نتخذ على الموت عهدًا ألَّا يختطف أباها وهي عذراء، ويعوزها إلى المساعدة، أو ينتشل أبا أبنائها وأمامها صِبية لا يستطيعون الاكتساب ... فماذا تصنع إذ ذاك؟ أتحترف التطريز، وهي لو فعلت لماتت جوعًا ... أم تخدم، أم تبيع ... وفي كليهما عناء ما بعده عناء؟

لست أشك في أنَّ ترتيب المنزل من أهم واجبات الفتاة، بل هو عملها الخاص، ولكني مع ذلك يؤلمني أنْ أسمع أنَّ بنتًا في سن التاسعة أو العاشرة، اهتم أهلها بتعليمها التدبير المنزلي، ذلك الفن المبني على علوم ونظريات شتى، لا تستطيع الصغيرة فهمها بروية، كما لا تستطيع تحمُّل المشاق في أعماله، كمكافحة النار في الطبيخ، وحمل الحديد في الكي

وغيره، فزمنها ضائع بلا فائدة، تستفيدها أو شيء ينفعها، كما يؤلمني أشد الإيلام أنْ أعلم أنَّ فتاة في سن الثانية أو الثالثة عشر قد حجزها وَلِيها بالمنزل لإتقان التدبير المنزلي ومباشرة أعماله، كأن التدبير المنزلي علمٌ مستقل بنفسه حتى تُحْرَم الفتاة من جميع العلوم لتتفرغ له، وما هو إلا إدارة المنزل، تلك المنزلة التي تحتاج إلى عقل راقٍ وذكاء نادر، وليست الفتاة أهلًا لها ما لم تأخذ من جميع العلوم العمومية بقسط؛ لأن اقتطاعها لهذا العلم ربما عاقها عن فهمه هو نفسه، فكثيرًا ما نرى السيدات اللائي صرفن كل حياتهن داخل البيوت وفي مباشرة أعمالها يجهلن النافع لمنازلهن، كما نرى من الرِّجال من يفهمون أسباب نجاح المنازل وانحطاطها، ويأمرون نساءهم باتباع النافع، فلا تلبث النساء أنْ ينسين هذا الأمر؛ لأنه لم يُطرح أمامهن كنظرية يبحث في صحتها العقل، بل كان أمرًا أو نصحًا جافًّا لا تأثير له في نفوسهن، ولا تقوى عقولهن القاصرة الضعيفة على فهم معناه؛ ولهذا لا يلبثن أنْ ينسينه فيذهب كأن لم يكن.

لا يكفي أنْ ننصح للفتاة بفتح الشبابيك ما لم تتعلم شيئًا مفيدًا من الطبيعة والكمياء وتركيب الهواء وخواصه وتأثيره في الجسم، هي لا تفهم ذلك حق الفهم إلا إذا تربَّت مداركها بالعلوم الابتدائية، كما أنه لا يفيدها شيئًا أنْ ننصح لها بتنظيف الأواني والاحتراس من ترك بعض الحوامض في الأواني النحاسية، والابتعاد عن ترك نور الغاز في غرفة النوم لما يُخرج من الكربون أو غير ذلك، فإن كل النصح لا موقع له من قلبها ما لم يكن لها من عقلها مُرشد وحاث على مثل هذه الأمور.

إنَّ الفتاة التي تتبع هذا النصح لأنها قرأته في كتاب التدبير المنزلي، أو سمعته من معلمتها، غير الفتاة التي استنبطت مما تعلمته تأثير العناصر بعضها في بعض، فعرفتها معرفة تامة، وفهمت ذلك على وجهه الصحيح، فإن الأولى ليست إلا تابعة ومقلِّدة قد تمر عليها بعض ظروف لم تكن ذُكرت في كتاب التدبير المنزلي أو تناولتها معلمتها في مباحثها، فتكون عُرضة للخطأ فيها، أما الثانية فقد تعلمت عموميَّات، يمكنها تطبيقها على جميع الظروف والأحوال، كما يمكنها بحدة ذكائها أنْ تبتكر أفكارًا لم يسبقها أحد إليها، فهي مفكرة مبتكرة لا مُقلِّدة متبعة، ونحن لو جرَّدنا التدبير المنزلي من علوم الكمياء والطبيعة والتشريح والفسيولوجيا والأخلاق واللغة، التي تقوى بها الفتاة على تفهم كل هذا؛ لوجدناه شيئًا بسيطًا لا يتجاوز المسح والغسل والكي والطبخ، وهي أمور عملية يمكن للفتاة أنْ تتدرَّب عليها أثناء المسامحات العمومية من كل سنة مدرسية، تكون بمثابة تطبيق على ما تعلمته لا أنْ تنقطع لها مدَّة الشباب.

والمنازل التي تُحجز فيها الفتيات لمباشرة الأعمال إمَّا أنْ تكون غير منتظمة — وهنا كان الأولى عدم بقاء الفتاة فيها — وإمَّا أنْ تكون على تمام النظام والترتيب، وفيها تلاحظ أنَّ أيام الأسبوع توزع على أعمال المنزل، كما توزع ساعات العمل على أعمال كل يوم منها، فيكون الأول لتجهيز الخبز مثلًا، والثاني للغسيل، والثالث للكي، والرابع لتنظيف جميع حجرات المنزل، والخامس للخياطة، والسادس لمقابلة الزوَّار، والسابع لملاحظة نظافة الأطفال … وقد يمكن استبدال عمل يوم بآخر حسب ما يتراءى لربة المنزل، وعلى العموم فلا يخرج العمل عن هذا في أيام الأسبوع، وفي كل يوم يبدأ العمل بنظافة الأطفال، ثم تحضير الفطور، ثم ترتيب نظام المنزل العمومي، ثم الالتفات إلى عمل اليوم الخاص من كي أو غسيل أو غيره، فجميع أعمال المنزل المختلفة يجب أنْ تتكرَّر في كل أسبوع مرَّة، كما أنَّ النظام العادي لكل يوم من ترتيب المنزل وتجهيز الفطور والغذاء والعشاء يتكرَّر كل يوم مرَّة، أي سبع مرَّات في الأسبوع، ويتكرَّر عمل المنزل بتمامه ٥٢ مرَّة في السنة، وأظن أنَّ السنة الواحدة تكفي لتعلُّم هذا الفن ورسوخه رسوخًا ثابتًا في الذِّهن، خصوصًا إذا كان لدى الفتاة الاستعداد والعلم الكافي لفهم الأمور على حقيقتها، وعلى هذا لا أفهم معنى حجز الفتاة السنين الطوال بحجة مباشرة أعمال المنزل، وقد كان في وسعنا تدريبها على هذا العمل مدَّة المسامحات المدرسية من كل سنة؛ أي ثلاث شهور ونصف في السنة، فلو ابتدأنا من سن الثالثة عشر إلى سن العشرين — وهي السن المعدة لتعليمها كما مر — لكان لدينا أربعة وعشرون شهرًا تقريبًا؛ أي سنتان تتكرَّر فيها أعمال المنزل ١٠٤ مرَّة، وما أظنها بعد ذلك إلا نابغة في هذا الفن لو شاء أهلها، وهي في أثناء ذلك تتعلم مختلف العلوم الضرورية لاستنارة العقل، حتى إذا اختصت بدرس التدبير المنزلي بعد ذلك فهمت لِمَ لا يصح أنْ يؤمر الطفل بعمل شيء، بل يلاطَف ليميل إليه، ولِمَ لا نترك أثاثًا كثيرًا في حجرة النوم، ولا يُستحسن أنْ تُفرش أرضها بالأبسطة الكبيرة التي يُتعذَّر رفعها من آنْ لآخر، ولِمَ كان هذا سبب كثير من التعب وعدم الفهم على من لم تتعلَّم تمامًا.

وقد أصبح يؤلمني أشد الألم أنْ يفتخر الناس بتخصيص بناتهم لدرس علم التدبير ومباشرة أعماله التي تتكرر من آن لآن، فيصرفن العمر في معرفة نتائج جافة لا تلبث أن تُنسى، محرومات من البحث في نظريات العلوم الصحيحة التي توصلهن إلى الحكم على نتائج الأعمال حكم خبير مُفكِّر.

أما التطريز فصنعة قديمة، وهو من الصنائع التي أعدمت أهميتها الآلات البخارية لقيامها بها، فأصبح المتر «الرُّكامة» أو «الدانتلَّة» يُباع بقرش أو بنصف قرش، وهو مع

ذلك مُتقن الصنع، لا يكاد يميزه الإنسان من متر طرَّزته صانعة ماهرة في عشرة أيام متوالية، وكذلك الأشغال المزركشة بألوان الحرير، فقد أصبحت تباع بما لا يزيد على ثمن موادها الأصلية، فما معنى تضييع زمن الفتاة في عمل مثل هذا؟!

كان الكُتَّاب في الأزمانِ الغابرة يعيشون من نسخ الكتب، فهل نرى لذلك من أثر اليوم بعد أنْ اخترعت المطابع؟ وكان الرِّجال يسافرون على ظهور الحيوانات إلى أقصى البلاد، فهل استمرُّوا على هذا بعد اختراع القاطرات؟ وكنا كذلك ننسج ملابسنا، فكفتنا شر هذا الآلات البخارية، فلِمَ والحالة هذه تكابد الفتاة مشاق أعمال التطريز، وتفتخر المدارس بعرض هذه الأعمال وهي لا تدل إلا على قصر النظر والجهل بأحوال التربية؟ مع أننا الآن في القرن العشرين — قرن الحضارة والاختراع — أليس هذا دليلًا على ترك الرِّجال التفكير في شأن تعليم البنات؟

ماذا تستفيد الطفلة من التطريز وهو مُضر بصحتها، مضر ببصرها، مؤثِّر في نموها الطبيعي، فإن صِغَر الغرز وإتقانها يضطران الفتاة إلى الانحناء على العمل واقتراب نظرها منه، وهذا يعقبه تشويه في شكل الظهر وضرر عظيم بالعينين لتدقيق النظر في هذه الغرز الصغيرة والألوان المختلفة من أصفر وأحمر وأزرق وأخضر، هذا فضلًا عن أنَّ شد القماش على تلك الآلة المسماة بالمنسج يجعل خيوط نسيجه صلبه؛ فلا تتمكن الإبرة أنْ تنفذ من بين المسام، كما هو الحال في الخياطة مثلًا، بل تخترق الخيط نفسه فيخرج من ذلك نسالة رفيعة، حتى إذا وصلت إلى الرئتين أضرَّت بهما ضررًا بليغًا.

فما فائدة التطريز إذن؟! هل يُنمِّي عقل الفتاة؟ كلَّا … فإنه يُميت مواهبها ويعلِّمها الكسل، فالفتاة أثناء العمل تحصر نظرها وفكرها في دائرة صغيرة لا تتجاوز نصف المتر المربع، وهي دائرة منسجها، وإذا ولعت به، وأرادت أنْ تتم زهرة تعلَّمتها ربما استمرت في ذلك ساعات طوالًا قضتها، وهي لا تكاد ترى ما يحيط بها من الأشياء، ولا ما يحصل في المنزل من الإهمال، ومنه تتعلَّم الكسل وعدم الالتفات إلى شئون المنزل، وتفقد منها مزية حب الاستطلاع والتنبه إلى ما يحيط بالإنسان، وليس في استطاعة ربة المنزل أنْ تشتغل بالتطريز، وإن فعلت فالويل للمنزل، فهي تصرف اليوم في عمل لا تزيد أجرته على قرش واحد، وهي في جانب ذلك تترك المنزل للخادمات يبددن الأشياء، ويتلفن النظام ويفسدن أخلاق الأولاد، فهل كان التطريز إلا جناية على المنزل وأهله؟ فلِمَ تهتم به وتفتخر المدارس بصرف عنايتها إليه؟ خاصةً مع أنه لا يصح أنْ يكون صنعة للفتاة تعيش منها، ولا هو بعلم يفيدها ذكاءً وابتكارًا؟ إنْ قيل إنه يُعلمها تنميق

الألوان وتحسين المناظر فأين الرسم لهذا الغرض وهو أسهل وأنفع؟! على أنَّ اشتغال الفتاة بتحسين الغرز، واستغراق الزمن الطويل فيها ربما شغلها عن الغرض الأصلي، وهو تنميق الألوان وتحسين الزِّيِّ، وليس في الرسم ما يشغلها عن ذلك، وأهم دليل على هذا أنَّ البارعات في التطريز قد لا يستطعن أنْ يرسمن الأشكال الجميلة التي يشتغلن عليها، بل يحتجن إلى رَسَّام في ذلك.

الرسم سهل لا يضر بالصحة، وهو إنْ أُتقِن أغنانا عمَّا نستعمل التطريز من أجله، فإن القطعة الحريرية التي تصرف الفتاة مالًا كثيرًا ووقتًا في تطريزها لتضعها بعد ذلك على حائط حجرة الاستقبال، ربما أبدلت بها قطعة ورق نمقتها رسامة حاذقة في وقت وجيز، على أنه يُعد إسرافًا وطيشًا أنْ تصرف المال في شراء الحرير وتطريزه ووضعه داخل زجاج هو لا يفوق الورق بهجة، بل ربما كان أقل جمالًا منه.

وإذا قيل: إنَّ التطريز تسلية للفتاة في وقت فراغها، قلت: فلِمَ لا تتسلى بمطالعة كتب مفيدة يستنير بها عقلها وتنفعها في عملها؟! ولم لا تتسلى بترتيب المنزل وبنظافته ومراقبة حركات الأطفال والحديث معهم وإجابتهم عما عسى أنْ يسألوها فيه من المعارف البسيطة لتتربَّى مداركهم ويقوى تصورهم؟ ولم لا تتسلَّى بخياطة ملابسها التي تدفع في خياطتها مالًا عظيمًا؟! ولم لا تتسلَّى بتعليم الخدم واجباتهم؟ أليس في كل ذلك غنًى لها عن التطريز؟ فلمَ تهتم المدارس بذلك التطريز الذي لا فائدة منه فتصرف التلميذات وقتًا طويلًا فيه، حتى إذا خرجن من المدرسة ما وجدن من حاجة ماسة إليه، وهن مع ذلك جاهلات بالخياطة مع شدة احتياجهن إليها، وهي أسهل من التطريز، وأقل ضررًا منه بالصحة، كما أنها لا تستغرق ذلك الزمن الطويل الذي يستغرقه التطريز.

تحتاج الفتاة إلى خياطة ملابسها وملابس أخواتها ثم أبنائها، وهي فضلًا عن ذلك صنعة تقيها شر الفقر إذا احتاجت إليها، فلِمَ لا تحل محل التطريز ويُنبَذ التطريز تمامًا لضرره وقلة نفعه وتقادم العهد به، ولو تعلمت الفتاة لوفَّرت تلك المبالغ الباهظة التي تُصرف للأجنبيات، ولا أظن هذا يخفى على أحد، فالأم تتبع في تربية الفتيات الوهم والخيال وتترك الحقائق وهي أصل النجاح لو فكرن في إصلاحهن.

ولست أقصد بقولي التطريز بعض الغرز الضرورية لعمل الملابس وزخرفتها زخرفة بسيطة، بل أقصد المغالاة فيه إلى حد إعاقة الفتاة عن تحصيل ما يلزمها من العلوم الضرورية والصنائع الحية كالخياطة والعزف على البيانو والرسم وغير ذلك من الفنون الجميلة.

تأثير الكتب والروايات في الأخلاق

إنَّ معرفة القراءة والكتابة لا يصح أنْ تعتبر علمًا مستقلًا، وما هي إلا ضرب من التخاطب، فإذا تخاطب شخصان أحدهما بعيد عن الآخر فإنما يتكاتبان، وهذا بمنزلة الحديث إذا كانا قريبين، فمن يتعلَّم القراءة والكتابة لا يُعد متعلِّمًا إلا إذا جعل ذلك سبيلًا إلى نيل العلوم، ومن الأسف أننا نجهل هذه الحقيقة في مصر، ونعتبر من تعلمت القراءة والكتابة مُتعلمة، فإن أخطأت نسبنا ذلك إلى العلم، وقلنا إنَّ التعليم يفسد أخلاق الفتاة، ويعلم الله أنها جاهلة لا علم لديها، وما أخطأت إلا لجهلها، ولكنها عرفت طريقة أخرى في مخاطبة الغائبين عنها، فهي تُعبِّر بتلك الطريقة عن أفكار ساقطة يمليها عليها الجهل والغرور، وهي في ذلك أسوأ حالًا ممن لا تعرف القراءة والكتابة؛ لأنها قد تسجل بكتابتها عارًا لا تمحوه الأيام، أمَّا من لا تعرف القراءة فمن الصعب أنْ يحسب الناس عليها أنفاسها، وقد تقول ما يعاب إلا أنه لا يلبث أنْ يُنسى لأنه لم يُدوَّن.

فمعرفة القراءة والكتابة ليست علمًا، ولكنها بابٌ نصل به إلى جميع العلوم، هذا إذا ولجناه، أمَّا إذا تركناه مُغلقًا فلا سبيل إلى تلك الغاية، فإن الإنسان يتعلم من مطالعة الكتب النافعة أضعاف ما يكتسبه في المدارس؛ لأن زمن التعليم قليل، والمواد المقرَّرة فيه محصورة، فإذا اقتصر عليها الإنسان لم يستفد منها علمًا حقيقيًّا وتجربة صادقة؛ ولذلك نرى أنَّ كثيرًا من الرِّجال الذين تعلَّموا في مدرسة واحدة، ونالوا شهادات واحدة مختلفو الدرجات في العلوم، هذا عالم خبير وذاك غر جاهل؛ وما ذلك إلا لأن أحدهما تعلَّم فنما عقله وازدادت معلوماته، أمَّا الآخر فقد اقتصر على ما تعلَّم داخل المدرسة، ولم يستعمله فصدأ عقله ونسي ما تعلمه.

التلميذ في المدرسة يتعلم من أساتذة معدودين، وقد لا يكون بينهم نابغة، ولكنه يُطالع في الكتب النافعة أفكار نابغي الأمم في عصور مختلفة مع عناية هؤلاء النابغين

بترتيب الأفكار وسردها سردًا سهلًا محكمًا، فيستفيد منها ما لم يستفده من المعلِّمين، وهكذا مُطالع الصحف، فإنه وإن كان يطالع أفكار أبناء عصره إلا أنه يستفيد من ذلك أكثر ممن خالط هؤلاء الكتاب؛ لأنهم لا يتكلمون بنفس الحيطة والرَّوِيَّة التي يكتبون بها، هذا فضلًا عن أنَّ المطالع قد تمر عليه الفكرة الواحدة بعدَّة تغيرات متباينة، يقرؤها في كتب مختلفة، فتثبت في ذهنه، فلا ينساها مهما تقادم العهد، فالمطالعة لها تأثير حسن في الأخلاق والمعارف، ولهذا كان أفضل المدارس ما اجتهد معلموها في تنمية حب المطالعة والبحث في نفوس الأطفال؛ ليستفيدوا إذا كبروا، فإنه لا يستطيع المعلمون مهما اجتهدوا أنْ يعلموا الطفل ما يحتاج إليه من المعارف، ولكنهم إنْ أحسنوا أرشدوا الطفل إلى المطالعة، وغرسوا في نفسه حب الكتب والولوع بالبحث والكشف، فيأخذ من العلوم ما أراد … ومن الجهل أنْ نظن أنَّ المدارس كافية لإخراج رجال ونساء متعلمين كاملين، وما التعليم فيها إلا تمهيد لما يكتسبه الإنسان باجتهاده بعد ترك المدارس.

ولقد سعى كثير من علماء التربية في أوروبا وغيرها في استمالة الأطفال للمطالعة، فألفوا لهم الحكايات الوهمية والروايات؛ ليجتذبوهم إلى الكتب، والطفل بطبيعته مولع بالحكايات، فهو يجتهد في مطالعة تلك الكتب، فتفيده في تهذيب الأخلاق وفهم الأفكار المدونة، وتعده لفهم الكتب النافعة في المستقبل، ولم يشأ علماء التربية أنْ يفاجئوا الطفل بكتب العلم والتهذيب الصريح خوفًا من أنْ يملها أو يصعب عليه فهمها فينفر منها.

إنَّ الروايات إذا كُتِبَت بقلم نابغة يستطيع تمثيل الأخلاق والعادات، ووضع ذلك في قالب جميل وعبارات جزلة شَوَّقَت الأطفال والشبان إلى قراءتها، وكانت لهم بمثابة «نظارة معظمة»، ينظرون بها الفضيلة والرذيلة مجسمة، فينغرس في نفوسهم حب الأولى والنفور من الثانية، وفي الروايات من ذكر النبوغ والاشتهار ما هو فوق الغلو، فيعجب به الطفل لغرابته، وربما علمه ذلك الشغف بحب الظهور، فهانت عليه مكابدة المشاق في الحصول على العلم حبًّا في الاشتهار، وهي فضلًا عن ذلك تعلم حسن الإنشاء، وسلامة الذوق في اختيار العبارات الرقيقة والمعاني الجزلة، والإنسان بطبيعته مُقلِّد ماهر وخصوصًا الطفل؛ فإن قوة التقليد عنده عظيمة، فهو يقلد ما يقرؤه ويردده بدون أنْ يشعر بذلك … ولا أشترط في انتخاب الروايات أكثر من أنْ يكون مؤلفها صحيح الجسم والعقل، تدل كتابته على سلامة الذوق في اختيار المواضيع، فبالنسبة مثلًا للروايات التاريخية فإنها — وإن كانت تفيد الإنسان — معلومات حقيقية إلا أنها مغالى فيها إلى حد بعيد، ولا بأس بالروايات الغرامية ما دامت الغاية منها التعبير عن الغرام والتشنيع

بعواقبه، خصوصًا وإن أكثرها ينتهي الغرام فيها إمَّا بفضيحة أو بعاقبة محزنة، وفي كلتا الحالتين عبرة ورادع للقارئ إن كان لديه ذرَّة من العقل والاستعداد للخير، أمَّا إذا كان شريرًا غبيًّا فقد تنعكس العبرة في نفسه، ومثل هذا فاسد لا محالة، ولا ذنب للروايات في خبث نفسه.

من الخطأ المحض أنْ يظن المربُّون أنه من حسن التربية جهل الطفل بجميع الرذائل وعدم ذكرها أمامه بالكلية، فإن المربِّي الذي يُعرِّف الطفل مضار الرذائل قد قام بواجبه نحو تلميذه، فإن أراد الطفل إلا الوقوع في تلك المضار كان هو الجاني على نفسه مع علمه بسوء العاقبة، بخلاف الجاهل بالشيء؛ فقد يقع فيه لجهله بعاقبته، ويكون مسئولًا عن ذلك التقصير، كالرَّجل الذي يسير في طريق يجهلها وفيها مخاوف لا يعرفها، فإن لم يرشده العارف بها إلى موضع تلك المخاوف، فقد يقع فيها على جهل بها، وهو في ذلك معذور، واللوم كل اللوم على من لم يُظهر له ذلك الضرر قبل الوقوع فيه.

والطفل في حاجة شديدة إلى تكوين عقله وتقوية تصوره بالمطالعة، ولكنه لا يستطيع الصبر على مطالعة الكتب العلمية أو التهذيبية، فيجب أنْ يكون لديه كثيرٌ مما ذكرت من كتب الحكايات؛ لتتربَّى عنده ملكة الإنشاء والفكر، ولكننا نخطئ كثيرًا في ذلك، فنمنع أطفالنا — خصوصًا البنات — من مطالعة تلك الكتب السهلة عليهم، فتكون النتيجة عدم مطالعتهم بالمرَّة لصعوبة الكتب الأخرى عليهم، وعدم ميل النفوس الصغيرة إليها، ويكون ذلك عادة لهم إذا كبروا، فلا يهمهم البحث عن نفائس العلوم في بطون الكتب والمجلات.

الإنسان قابل للزيادة في العلم طول عمره، فإن تعود المطالعة كانت أعظم أستاذ ومساعد له في إحراز ما أراد، ولذلك اهتم العرب بتعويد الأطفال حب المطالعة؛ لأنها مفتاح العلوم، وإذا كان هؤلاء الأعاجم يهتمون بوضع كتب فكاهية وروايات ليجذبوا الأطفال إلى مطالعتها، مع أن لغة المتكلم عندهم هي نفس لغة الكتابة، فإننا — نحن الناطقين بالضاد — أولى منهم بذلك، فالطفل يدخل في مدارسنا وهو جاهل باللغة التي يكتب بها، فلا نهتم بتسهيل ذلك عليه، بل نكثر له من القواعد التافهة، ولا نلفته إلى المطالعة خارج المدرسة، حتى إذا كبر عجز عن التعبير عن ضميره لقلة مادته وجهله بمعاني اللغة العربية، وينصرف إلى مطالعة كتب الحكايات باللغة الأجنبية، فلا يلبث أنْ يجد اللغة الأجنبية أسهل عليه من اللغة العربية؛ وذلك لعدم مطالعة الكتب العربية.

إنَّ أعظم ما تُخْدَم به اللغة العربية الآن هو تأليف أو ترجمة حكايات وروايات مفيدة بإنشاء سهل جميل الأسلوب والعبارة وحفظها في مكتبات المدارس، وحث التلاميذ

على مطالعتها، فقد سئمنا أنْ نرى التلميذ نابغة في النحو والصرف، يعرف الإعلال والإبدال، ولكنه لا يستطيع حسن التعبير باللغة العربية الصحيحة لقلة مادته، وجهله بأساليبها ومعانيها، وبعده عنها بعدًا واسعًا.

ولقد قام نقولا أفندي رزق صاحب «الروايات الجديدة» ببعض الواجب في رواياته، فما بال المدارس لا تزال محجمة عن إدخال مثل هذه الكتب في مكتباتها؛ ليطلع عليها التلاميذ كما يطلعون على أمثال ذلك في اللغات الأجنبية؟! يجب أنْ نحث التلاميذ على مطالعة الكتب الفصيحة بقدر ما يجب علينا إبعادهم عن قراءة الأفكار الساقطة والعبارات الركيكة، ومن الأسف أنْ مثل هذه الكتب المنحطة قد نشرت في مصر بكثرة، فلا تكاد تصادف تلميذًا صغيرًا إلا وفي يده كتاب من كتب الحكايات المكتوبة باللغة العامية، أي بتلك اللغة المتغيرة الساقطة التي هي مجموعة غلطات في نفس اللغة العربية وخليط من لغات أخرى متعددة، وتدلنا عبارات تلك الكتب المنحطة عن انحطاط مؤلفيها، فهي تنفث الفساد في قلوب الأطفال، وتعودهم أسلوبًا ساقطًا منحطًّا في كتاباتهم، وكان يجب على المدارس مصادرة مثل هذه الكتب، ولو صادرتها الحكومة لكان ذلك أنفع للأمة من مصادرة الصحف.

يميل التلاميذ لقراءة مثل هذه الكتب لعدم وجود كتب حكايات سهلة باللغة العربية الصحيحة، فهم لكثرة مطالعتهم لها يُقلِّدونها في إنشائها، فقد اعتادوا على أسلوبها مهما أرشدهم المعلمون إلى الأسلوب الصحيح، وحذروهم ذلك الأسلوب المنحط، فكلما بنى المعلمون الأكفاء هدمت تلك الكتب ما بنوه، وضيعت مجهوداتهم سدًى، فلو رفع هؤلاء المعلمون قضية مدينة يطلبون فيها التعويض من مؤلفي تلك الكتب الساقطة أمام قاضٍ ذكيٍّ عادل لحكم لهم بذلك لما ينالهم من الضرر في مهنتهم.

الأفراح والمهور

إنَّ في إقامة الحفلات على اختلافها وحضور المجتمعات، ما يدعو القوم إلى التضامن والاتحاد؛ ولهذا أمر الدين الإسلامي الحكيم بالاجتماع في أيام الجُمع بين أهل البلد الواحد، كما أمر بالاجتماع العمومي في الحج لأهالي البلاد المترامية الأطراف، فيجتمعون لأداء فرض الحج، وهناك يتعارفون ويتآخون، فيتحدون ويتعاونون …

حث على مثل هذه الاجتماعات الدين الإسلامي، وهو دين الحضارة المشهور بالنظر في احتياجات البشر، كما حضَّ على الاجتماع في الأعياد والمواسم لنفس هذا الغرض، وحتَّم كذلك كشف وجه المرأة في الحج، ومنه نعلم أنَّ المرأة لها ما للرجل من الحقوق الاجتماعية … ولقد سارت جميع الأمم على مثل هذه المبادئ النافعة، فما من أمَّة إلَّا ولها أعياد تجتمع فيها فتلهو وتتسامر، وقد تطرَّقت الناس من هذا إلى الاحتفال بكل ما يجب الاحتفال به — كذكرى بعض الحوادث المهمة أو الرِّجال المشهورين — ويختلف هذا الاجتماع باختلاف أحوال الأمَّة، فالأمَّة المتيقظة تكثر مجتمعاتها، ويُعتبر هذا دليلًا على تقدُّمها نحو مستقبلها، وهو ما نستبشر به، ونرجوه للأمة المصرية الآن، وقد بدأت تشعر بالاجتماع والتعاون، ومن أهم الأمور التي يحتفل بها الناس إقامة الأفراح عند الزواج، وكان ذلك ولا يزال في جميع الممالك على اختلافها، ولكل أمة منها عادات مخصوصة، وفي ذلك معنى شريف يدل على اهتمامهم واحتفائهم بعقد تلك الرابطة بين الزوجين، كما أنَّ فيه إعلان لجميع معارفهما بهذا الاتحاد الجديد، ولقد عنيت الديانة الإسلامية بهذا الأمر، فأوجبت وجود الشهود عند العقد، وما إقامة الأفراح إلَّا زيادة في عدد هؤلاء، حتى لا يتأتى لأحد الزوجين إنكار الآخر.

الاحتفال بهذه الرابطة معقول محبوب، ما دام بعيدًا عن الإسراف والتبذير، فإن الغرض منه ليس أكل الألوان المختلفة، ولبس الملابس الفاخرة، بل هو الاحتفال بهذا

الاتحاد وإظهار أهميته، كما يكون داعيًا إلى التودُّد وصدق المحبة بين الأسرات المختلفة، فيتعودون منه التعاون؛ إذ يعين هذا صديقه في إقامة فرحه، كما يبادر الثاني بإعانته إذا احتاج إليه؛ قيامًا بواجب الجميل السابق …

والزواج أمر يخرج به العروسان من حياة إلى حياة أخرى جديدة … فالاحتفال به واجب، والنظر في شأنه وفحصه قبل ذلك أحق وأولى بالعناية، فعلى أهل العروسين أنْ يتخيَّروا لهما مستقبلًا حسنًا، وخصوصًا أبا الفتاة، فيجب أنْ يدقِّق البحث، ويتحقق من حسن العاقبة قبل أنْ يمد يده بالرضا، حتى إذا تم ذلك احتفل بتلك الرابطة الجديدة احتفالًا بعيدًا عن الإسراف، جديرًا بأن يجتذب العقلاء الأفاضل، لا أهل الطرب والمجون، فلا داع — في رأيي — للطبول والزمور، وطهي الأطعمة المختلفة، والمسابقة في المآكل والملابس، بل يكفي أنْ يدعو الرَّجل أصدقاءه، ولو على شرب القهوة والشاي، ويتسامرون فيما يُرقِّي شأنهم جميعًا، ويعود بالفائدة عليهم وعلى العروسين، ويستعد الجميع لهذا الاحتفال بلبس بسيط متفق عليه فيه اقتصاد ووقار، وبهذا تتم الفائدة المطلوبة من الاحتفال، وهي التودد والمؤاخاة لا التنافس والتحاسد …

كلنا يعلم أنَّ المال لا يرفع وضيع النفس، ولا يضع الرَّفيع، متى كانت النفوس عالية متربية، فإننا نهتم بالفضائل، ونتفاخر بها ناظرين إلى ذلك المال نظر الحكيم العاقل، الذي يعرف أنه عرَض زائل، فنترفع عن التفاخر به، ونظهر أمام أصدقائنا بأبسط الملابس، وفي ذلك حفظ لثروتنا، ومانع لنا من التحاسد والتباغض، وسبب للاتحاد والتعاون، ودليل ظاهر على رقينا الأدبي، واهتمامنا بالنفوس لا بالأزياء … فاللبس البسيط يستطيعه الغني والفقير، فإن اتفقنا على لبس معين منه في احتفالاتنا لذهب ذلك بالفروق بين الأشخاص، فزال التنافر وحل محله الاتحاد والوئام، وهو الغرض من كل احتفال، وظهور القوم واحتفالهم بلبس واحد دليل على اتحادهم وحبهم للنظام والترتيب، وهو ما نهمله كثيرًا، أما أفراحنا الحالية فهي قد تنتج عكس ما قُصد بها من ذلك التودُّد والمؤاخاة، فيلبس صاحب الفرح أفخر ملابسه، ويجتهد أنْ يظهر أمام ضيوفه بمظهر الأبهة والعظمة، ويغالي كل من المدعوين في الظهور بالغنى، فيخرج كل منهم وهو لا هم له إلَّا الطعن في غيره، وتسفيه رأيه فيما قال أو أظهر من الغنى والجاه، وتخرج كل فتاة تلهج بذكر لبسها، وتذم لبس غيرها من الفتيات مثيلاتها، فتغتاب كل منهن الأخرى حبًّا في الظهور دونها … وهذا ما لا نريده بالحفلات.

أمَّا المهر فهو مقدار من المال يدفعه الرَّجل للمرأة؛ ليؤيِّد به الرابطة الزوجية، وقد أراد به الله — سبحانه وتعالى — تقوية الرابطة بين الرَّجل والمرأة، فإنه يحرص عليها؛

خوفًا على ضياع ماله الذي دفعه فيها، وهي ترضى عنه وتميل إليه؛ لبذله النفيس في الحصول عليها، حتى إذا استوثقت الرابطة بينهما أمكنهما أنْ يستفيدا من ذلك المال معًا، ويكون ذلك داعيًا إلى زيادة الألفة بينهما.

ولقد اختلف العلماء في مقدار الصداق، واستدل بعضهم بالحديث الشريف على أنه يُكتَفى فيه ولو خاتمًا من حديد، وهذا التقدير لا يتفق مع روح العدل والحكمة اللذين قصدهما القرآن الكريم، وبهذا التفسير يخرج الصداق عن معناه الأصلي، ويصبح اسمًا بلا مسمى، وما فرض الله — سبحانه وتعالى — شيئًا إلَّا لحكمة، وما أراد بالصداق إلَّا النفع الحقيقي للعروسين، فإن صح للفقير المعدم أنْ يعطي ما استطاع كهذا الخاتم أو غيره، فلا يصح للمتيسر أنْ يبخل بماله في تأييد تلك الرابطة، فإن قلَّة المهر قد توهي رابطة الزواج، ولا شك أنَّ الرَّجل الذي لا يتكلَّف في الزواج إلَّا النزر القليل من المال، لا يخشى عاقبة الطلاق، ولا استبدال الزوجات، ولو كان الطلاق بيد المرأة لصح أنْ تدفع هي المهر؛ لتحافظ على الرابطة خوفًا على ضياع مالها، أما وهو القائم بأمر الطلاق المتسبب فيه غالبًا بلا سبب جوهري، فلا بُدَّ من أخذ الضمان عليه بما يدفعه من ذلك المهر.

ولعل العلماء قرَّروا ذلك المبلغ الزهيد؛ لأنهم هم الدافعون للمال، ولو كلف الله المرأة دفع الصداق لقرَّروا كثرته وذكروا قوله تعالى: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾. نعم، كانوا سيكرِّرون تلك الآية مستشهدين بها على كثرة المهر، أمَّا الآن وهم المكلفون بالدفع فلا بدع أنْ يفسروا ذلك بما شاءوا، وهذا دأب الرِّجال سامحهم الله، فما أكثر ما يتساهلون في أداء ما فرض الله عليهم ويغفلون عنه، وينتقدون أي إهمال صغير في جانب المرأة، حتى وإنْ كان ذلك في بعض السنن المحبوبة لا الفروض الواجبة … وأوضح مثال لذلك أعمال علماء الإسلام من إهمال ما فُرض عليهم من قطع يد السارق ورجم الزاني، ولم يروا في ذلك خروجًا عن الدين الإسلامي، مع أنه أمر بذلك بعبارة صحيحة لا تحتمل التفسير والتأويل … ولكنهم رأوا في خروج النساء للعمل النافع ما يخالف الدين، فنهوا عنه وليس هناك من آية تحرم ذلك …

ولنعد إلى موضوعنا الأصلي، فأقول إنَّ مضمون الآيات الواردة في الصداق يدل على كثرته بقدر طاقة الزوج، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ مما يدل على أنَّ الرَّجل قد يعطي امرأته ما هو في حاجة إليه، ثم يسترضيها بعد ذلك؛ لتسمح له بالأخذ منه عند الحاجة، ورجل هذا حاله قد أعطى فوق طاقته …

إنَّ كثرة المهر تدعو الرَّجل إلى الحرص على امرأته؛ خوفًا من خسارة ماله بلا فائدة، والشيء الذي لا يحصل عليه الإنسان إلَّا ببذل المال الكثير، لا يفرِّط فيه إلَّا بعد الجهد والعناء ... هذا وفي كثرة المهر حث للشباب على العمل واكتساب المال قبل الزواج، حتى إذا اجتمع لديهم ما أرادوا منه بحث كل واحد عن خير فتاة يعطيها ذلك المال الذي بذل الجهد في اكتسابه، ويحرص عليها حرص الأعور على عينه، لا أنْ يتزوج وهو لم يزل تائهًا عن طرق الكسب، فيلقي بنفسه وامرأته وأولاده في شقاء الفقر والحاجة ولا يعرف لهم قيمة.

إذا نظرنا إلى هذا علمنا أنَّ الزوج يجب أنْ يُكلَّف دفع صداق يليق بمقامه ومقام أسرته، ولا يصرف هذا الصداق في أشياء تافهة كما يُفعل الآن، بل يُحفظ باسم الزوجة، ويضيف إليه والدها نفقات الفرح والأثاث الزائد على الحاجة، ثم يشتري لها به شيئًا ثابتًا كالعقار وغيره، فإن اتفقت مع الزوج — وهو ما يجب أنْ نسعى إليه بحسن الاختيار — كان ذلك لهما ولأولادهما، وإنْ أراد استبدالها كان ذلك ضمانًا لها من الحاجة، وهو لا شك ما أراده الله في كتابه العزيز.

الزَّار

إنني قبل الخوض في موضوع الزَّار أتكلم أولًا عمَّا ساعد على انتشاره بين النساء، مستدلة بذلك على أنَّ اللوم واقع على من حرمهن لذَّة العلم والفكر، وجعلهن في معزل عن معترك الحياة الحقيقية، فكانت حياتهن كلها خيالًا وأوهامًا، ولو عاش الرِّجال في مثل هذا الوسط، لرأينا من خزعبلاتهم ما هو فوق ذلك.

قلت فيما سبق إنَّ حب الذات كان قد ذهب بالرِّجال مذهبًا بعيدًا، فلم يعتبروا النساء من الجنس البشري، بل ظنوا أنهن من ضمن الأنعام التي خلقت ليتمتعوا بها، فحبسوهن في المنازل، وضيَّقوا عليهن كل التضييق، وكانوا يغارون عليهن من مس النسيم، وقد ضنوا عليهن بالعلم؛ خشية أنْ تنمو عقولهن فيطالبن بحقوقهن المهضومة.

رأى الرِّجال أنَّ ذلك في صالحهم، ونسوا أنَّ المرأة رئيسة المنزل، وعليها مسئولية سعادة الأسرة، فإذا كانت قاصرة الإدراك، كان ذلك وبالًا على الأسرة عمومًا، وعلى الرِّجال خصوصًا، فهي تضرُّه حيث تريد أنْ تنفعه، وعدوٌّ عاقل خيرٌ من صديق جاهل.

جهلت المرأة مركزها في الهيئة الاجتماعية، كما جهلت الحياة لانقطاعها عنها، وظنت أنَّ كل واجبها إنما هو استمالة الرَّجل بالدَّلال والجمال، فتعلَّقت بذلك، ووجدت الخزعبلات إلى نفسها سبيلًا واسعًا، وسمعت من بعض الفقهاء الذين أراد والدها أنْ يعلموها الدين أنَّ هناك شياطين وجنًّا، فغرَّها الجهل، وأرادت أنْ يكون جمالها داعيًا إلى استمالة هؤلاء الجن إليها، لا الرِّجال فقط، فسرَّها أنْ يقال عنها إنَّ سلطان الجن الأحمر أو الأخضر عشقها وتشبث بجسمها.

علمت زعيمات الزَّار ذلك الميل من النساء، فجعلن وجهتهن استمالة النساء إليهن من هذا الطريق، فإذا انحرف مزاج إحداهن واستدعت زعيمة الزَّار، قالت لها: إنَّ سلطان المغرب قد تعلق بك قلبه، وإنَّ الجن لا يعشقون إلَّا كل طاهرة جميلة، فتميل صاحبتنا

إلى هذا الوهم؛ حبًّا في الظهور بالجمال الذي أسر السلاطين قبل العامة، ولهذا نرى أنَّ كل العفاريت التي تشبثت بأجسام النساء في مصر سلاطين، ليس من بينهم عامل ولا لص ... وإني أعجب كل العجب؛ لكثرة الملوك، وقلَّة الرعايا في أمم الجن الذين يلبسون نساء مصر!

ولعلَّهم — على عكس نظامنا نحن بني الإنسان — فكلهم سلاطين وملوك، ورعاياهم معدودة لا تتجاوز الأربعة!

تتعلق تلك المسكينة بقول زعيمة الزَّار، ولا تريد بالطبع أنْ تُكذِّبها، ما دام فيه دعوى وصفها بالجمال والشرف، والنفس ميالة إلى الفخر، وإنما يفتخر الإنسان بما يراه حسنًا في عرفه وعلى حسب معلوماته، والمرأة الجاهلة البعيدة عن العالم لا ترى الفخر كل الفخر إلَّا بالجمال والرِّقة، ولو جرَّ عليها هذا الفخر الفقر والخراب، ولا مسئولية عليها في هذا، ما دامت جاهلة مغرورة، وإنما الذنب على من سهَّل لها هذا الطريق، وقضى على مواهبها العقلية بالخمول والجمود، وما أراد الرَّجل بذلك إلَّا أنْ تكون طوع بنانه، فليذق الآن حلاوة هذه الطاعة العمياء، وليتحمل كل تصرفاتها بالرضا والقبول، ما دام يقول بجهلها وانقطاعها عن معترك الحياة.

لست أتكلم اليوم عن الزَّار كلام ناصحة تأمر السيدات بالابتعاد عنه، وأنا أعلم أنَّ العلم قد ذهب بهذه العادة السيئة في أغلب الطبقات الرَّاقية من الأمة المصرية، ولم يبق مُصرًّا عليها إلَّا نساء الطبقة السفلى، فليُتركن على هذا الجهل والخمول ما دام ذلك يطرب رجالهن، ولنا أمل أنْ تزول تلك العادة من نفسها ما دامت العناية موجهة إلى تعليم البنات كما نراه الآن، فينمحي عنا عار تلك العادة العتيقة، التي هي من بقايا الجهل القديم، والجهل جوٌّ لا تعيش فيه إلا الخزعبلات والأوهام، ويسرني أنْ أقول إنَّ المرأة المصرية سائرة إلى الأمام بخطًى واسعة.

ولا أظن أنني في حاجة إلى وصف حفلات الزَّار وانتقاد النساء فيها، فكل إنسان يعرف ذلك، ولكني إنما أقول إنَّ هناك بعض أسباب غامضة حملت النساء على الاعتقاد بوجود الزَّار؛ وذلك لجهلهن وبعدهن عن العمل، حتى يعلم الرَّجل أنَّ هذه الأدواء في النساء لا يزيلها الإرشاد والنصح، ولكنها تذهب من نفسها متى التفتت النساء للعلم والعمل.

نرى أنَّ بعض النساء تمرض زمنًا ولا تشفى، حتى تقوم بحفلة الزَّار، فكيف يتفق هذا مع علمنا بأن الزَّار خرافة؟! وكيف شُفيت المريضة بتلك الخرافة؟! أليس هذا مما يحمل الساذجات منا على الاعتقاد فيه؟

فهن إذن معذورات، خصوصًا إذا أضفنا إلى ذلك جهلهن وعدم تجربتهن … فهل يؤثر في قلوب هؤلاء السيدات القول بترك الزَّار، ما دمن على جهل بهذه الأسباب التي ساعدت على شفاء تلك المريضة؟ وهل ينفع في استئصال تلك الخرافات من نفوسهن إلَّا العلم؟

إنَّ هناك أمراضًا عصبية نشأت عن اضطراب الأعصاب من متاعب هذه الحياة الدنيا، وقد يتعثر على الطبيب شفاء هذا المرض؛ إذ هو يزداد أو ينقص بتأثير بعض المؤثرات النفسية، كالكدر والسرور والوهم، فقد تشفى الفتاة العصبية بمجرد سرورها من شيء، كما يزيد مرضها إذا حدث ما يكدرها، وقد تشفى أيضًا بمجرد الوهم بأنها ستشفى إنْ فعلت كذا وكذا.

أضيف إلى ما تقدَّم مهارة زعيمات الزَّار في التغرير بالسيدات، فإنهن إذا انتُدِبن إلى مريضة تفرَّسن فيها، فإن كانت مريضة بالأمراض العصبية، أو فقر الدم، أو الضعف العام، قلن إنها «منزارة»، ويأخذن برد الضعف الناشئ عن ضعف الدم علامة على وجود العفاريت في الجسم، فيؤكدن للمصابة بهذا أنها تشفى إذا قامت بحفلة الزَّار، وقد يكون ذلك الشفاء المزعوم؛ لتأثير الوهم في نفس المريضة، خصوصًا إذا كانت عصبية المزاج، ومن دهائهن أنهن يأمرن المريضة بالابتعاد عما يكدِّر، والأخذ بما يجلب السرور والتفريج، زاعمات أنَّ سلاطين الجن يُغضبهم الكدر، فيؤثر هذا السرور والخلو من الأفكار والأعمال في نفس المريضة بتلك الأمراض المذكورة، فتتحسن صحتها — ولو نسبيًّا — حتى إذا حدث ما يُكدِّرها، وانحرف مزاجها، لامتها زعيمة الزَّار على ذلك، وقالت إنَّ السلطان غضب عليها وسبَّب مرضها، والحقيقة أنَّ الكدر كان نفسه سبب المرض.

أما إذا كانت المريضة مُصابة بمرض شديد يُخشى منه على حياتها، كالحمى وغيرها، فإن زعيمة الزَّار تقول إنها ليست من أهل الزَّار، ولا تقدم على معالجتها، وهذا من بعض الحيل التي تحتاط بها زعيمات الزَّار لأنفسهن، وقد يخطئن في معرفة بعض الأمراض، فيحسبنها من بين الأمراض العصبية … ومن أهم تلك الأمراض «السل الرئوي»، فكثيرًا ما تُشير زعيمة الزَّار على المسلولة بإقامة حفلة الزَّار، حتى إذا أُقيمت وتحرَّكت تلك المسكينة في هذا المرقص؛ أثرت تلك الحركة الشديدة في صدرها، فكانت سببًا في هلاكها، وقد حصل مرارًا أنْ سقطت المريضة ميتة في مثل هذه الحفلات، وفي ذلك يظهر جهل الزعيمات، وينكشف الغطاء عن دهائهن لمن يعقل.

تقام هذه الحفلة — التي لا غرض منها إلَّا التفريج — فتفرح بها المريضة العصبية أو الضعيفة، وتُسمَّى إذ ذاك بالعروس، وما أحلى هذه الكلمة في نفوس كثير من السيدات، فإن كانت السيدة مسنة ذكرتها كلمة العروس بأيام الشباب فيزداد سرورها، وإنْ كانت فتاة استبشرت بهذا الاسم المحبوب الذي تتمنَّاه ففرحت وطربت، فيؤثر هذا الفرح في نفسها، وتتحسن صحتها بشفائها، فيعتقدون في وجود الزَّار ... هذه هي الحيل التي تأتيها زعيمات الزَّار للتغرير بالنساء، فهل استطاعت النجاح في ذلك إلَّا لجهل النساء وانقطاعهن عن العمل الجدي؟ ولو تعلَّمن وفكَّرن في أمور الحياة لعرفن أنَّ أجسامهن ليست هياكل مجوفة تدخل فيها العفاريت، فتهذي بما شاءت كما كان يتوهم ذلك القدماء في أصنام الوثنيين ... ويُضحكني جدًّا أنْ أرى السيدة مصابة بعدد عظيم من العفاريت، فيأتي هذا ويتكلم بصوت مخصوص، ثم يذهب ويأتي غيره، فيُبدي حركات غير السابقة وصوتًا يخالف الآخر، وتحسب السيدة — لسذاجتها — أنْ تغيير صوتها وحركاتها مما يدل على وجود شيطان جديد في جسمها، ولا شك فهي مسكينة جاهلة تُصدق ما لا يكون، ولست أقصد بكلمة «جاهلة» من لم تذهب إلى المدارس فقط، بل أريد أنها تجهل كل شيء في أعمال هذه الحياة ببعدها عن العمل، ولو علمت ما تعلَمه الفلاحة من أعمال هذه الدنيا، لكانت أقلَّ جهلًا من ذلك، فإن كل عمل يعرفه الإنسان يُعد معرفة وعلمًا.

فالفلاحة تعرف أنْ تطبخ وتلاحظ منزلها، ثم تعرف أعمال زوجها أيضًا؛ ولذلك شغلها هذا العمل عن التعلُّق بتلك الخرافات الوهمية، فقلما نسمع عن الزَّار في القرى.

أمَّا المدنيَّة فهي تجهل كل شيء من أعمال الدنيا، ما عدا ملاحظة بيتها، وكثيرًا ما تجهله أيضًا، فهل لمثل هذه الخرافات من علاج يستأصلها من نفوس السيدات إلَّا العلم ثم العمل النافع؟